المشوق إلى القراءة وطلب العلم



تأليف

د. علي بن محمد العمران

الطبعة الثامنة عشرة

المشوق
إلى القراءة وطلب العلم

ⓒ دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٤٤هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
عمران، علي محمد حسين
المشوق إلى القراءة وطلب العلم، /علي محمد حسين عمران
ـ ط ١٨ ـ الرياض ١٤٤٤هـ
٢٢٤ ص؛ ١٤×٢٠ سم
ردمك: ٤-٥٦-٨٣٨١-٦٠٣-٩٧٨
١ ـ القراءة ٢ ـ الكتب والقراءة أ ـ العنوان
ديوي ٠٢٨,٩ ١٤٤٤/٤٠٨٣

رقم الإيداع: ١٤٤٤/٤٠٨٣
ردمك: ٤-٥٦-٨٣٨١-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الثامنة عشرة
١٤٤٤هـ ـ ٢٠٢٣م

دار الحضارة للنشر والتوزيع

ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥
هاتف: ٢٤١٦١٣٩ ـ ٢٤٢٢٥٢٨ فاكس: ٢٧٠٢٧١٩
فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨ تحويلة ١٠٣
الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨
البريد الإلكتروني: daralhadarah@hotmail.com

المشوق إلى القراءة وطلب العلم

تأليف
د. علي بن محمد العمران

دار الحضارة

بسم الله الرحمن الرحیم

مقدمة الطبعة السابعة عشرة

الحمد لله على ما أنعم وتفضّل، والصلاة والسلام على خير البشر وأكرم الرسل، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومَن تبعهم إلى يوم الدين.

وبعد، فلا أظن القارئ قد فرغ من مطالعة هذا الكتاب إلا وهو يردّد قول العلامة المَقريزيّ[١]:

وقد أعْرَضَتْ نفسي عن اللهوِ جُملةً
ومَلَّتْ لقاءَ الناسِ حتَّى وإن جلُّوا
وصارَ ـ بحمدالله ـ شُغلي وشاغلي
فوائد علمٍ لستُ من شُغْلِها أخْلُو
فطورًا يراعي كاتبٌ لفوائدٍ
بصحَّتِها قد جاءنا العقلُ والنقْلُ

---

(١) «دُرر العقود الفريدة»: (١/ ٥٠).

وآونـــةً لـلـعـلـمِ صـــدريَ جـامـعٌ
فتزكـو بـه نفسـي وعـن همِّهـا تسْـلُو

نزفُّ اليوم هذه الطبعة الجديدة من هذا الكتاب إلى عُشَّاق الكُتب، وإلى محبّي القراءة وروّاد المعرفة، وإلى ناشدي الثقافة والاطلاع، وإلى كلّ مَن أراد أن يلحق بهم أويتقفّى طريقهم أو يتعلّق بأسبابهم..

وأخص إهـداءه إلى «الجيـل الصاعـد»، الـذي أراه يتقرّى سـبيل العلم، ويسـتهدي طريقَ المعرفـة، مؤمّلًا أن يجـدوا فيه «**معالمَ**» يسترشـدون بهـا، و«إلماعة» يسـتنيرون بهـا، و«**تذكرة**» يتأدّبون بها، و«**جامعًـا**» لأخبار محبّي العلم و«**عُشّـاق الكتب**»، وحاديًا يخفّف مشـقّة الرحلة وطـول الطريق، وهـو على صغر حجمه، وقلة أوراقه يُغني عن «**صفحات**»[1] كثيرة.

نقدم لهذه الطبعة بعد أن مضى أكثر من عشـرين عامًا على طبعتـه الأولـى، لقي الكتـاب فيها ـ بحمـد الله تعالـى ـ اهتمام

(١) ما بيـن القوسـين هنـا وما قبله إشـارات إلى أسـماء كتب في بـاب العلم والحث عليه، ضمّنتها سياق الكلام، وهو أسـلوب معروف يسمّى براعة الاستهلال.

القراء، وحرصهم على قراءته، وتكـرار النظر فيه مرات عديدة، كما أخبرني بذلك عدد منهم، وراسـلني بذلك بعضُ مَن قَرَأه، وكتبوا ذلـك على صفحاتهم على وسـائل التواصـل المختلفة. والحمد لله على توفيقه.

* * *

ولا مانـع هنـا أن أناقش مَـن كتب ناقـدًا أو مستشـكلا أو مستفسِرًا، حيث ذكر بعضهم إشكالا ألَـمّ بخاطره وهو: أن هذه النمـاذج المعجِبة والقصص النادرة ربّمـا تثبّط الطالب وتـخلق في نفسـه اليأس؛ لما فيها مـن العلوّ في الاجتهـاد والتفاني في الطلب الذي قد يعجز عنه غالب النـاس! فالكتاب قد لا يؤدي الغرض الذي كتب من أجله، بل ربما انعكس الأمر!

فأقول جوابًا على هذا:

أولا: يمكن أن يكون هذا الاحتمال واردًا في حقّ نفرٍ قليل لا يقاس عليهم، ولا تلغى فائدة الكتاب أو الكتب التي من هذا اللون من أجلهم! وربما كان هؤلاء المُستشـكلين أو كثير منهم ممن تمكّن اليأسُ من نفوسـهم، أو ممن يبحثون عن مشـجب يعلقون عليه كسلهم وخوَر عزائمهم!

ثانيًا: لو كانت هذه الشبهة صحيحة لَـمَا جعل الله لنا في الأنبياء قدوة، ولا في الصديقين والسلف الصالحين أسوة، ولَـما كان في القَصَص عظة وعبرة، ولو كانت صحيحة لما بعثت هذه النماذجُ ـ في غالب الناس ـ الحياةَ بعثًا، ولما دفعتهم إلى التأسّي والاقتداء دفعًا...!

ثالثًا: ثم لو كان الأمر كما زعم هذا الزاعم فبمَ يتأسّى عُظْمُ الناس؟! أبمن ضعفت همّتُه أو خارت عزيمتُه؟ أو بمن هو متوسّط العزم كآحاد الناس؟!

رابعًا: يدفع هذا الزعم إقبال الناس ـ عمومِ الناس ـ على الاستكثار من هذه القَصَص لرفع العزائم، والتنشيط على العلم.

فتبيّن مما سبق أن هذا الإيراد ما هو إلا من أخوات سوف وليت وعسى، وعليه فلم يبقَ لهذا الخاطر حظٌّ من النظر ولا الاعتبار.

وإذا كنا نتحدّث عن الآثار المتوقعة لهذا الكتاب ونظائره، فإن من الثمرات المفيدة التي ننبه إليها: كسر شرّة التعالم التي قد تسري إلى طالب العلم إذا حصّل بعض العلم وظن نفسه قد بلغ منه مبلغًا؛ فإنه مهما اجتهد فإن كل صفحة من صفحات

الكتاب تُريه مكانه الحقيقي بجنب تلك القامات الباسقة والنماذج الهائلة، فتنقمع النفس وتعود إلى قليلها فتقنع به.

تعليقات القرّاء وذكرياتهم مع الكتاب

وأحب أن أسجل هنا بعض[1] ما اطلعت عليه من الثناء على الكتاب أو من تفاعل القرّاء معه؛ لا إعجابًا بكتابي ولكن لغرض رصد ما كتب حوله، وتعريف القارئ بالكتاب الذي بين يديه ممن قد اطلع عليه قبله، إذ لو وقع الثناء من مؤلف الكتاب لكان موضع تهمة بخلاف ثناء الغير.

١ ـ فأول من كتب عنه الأستاذ عبد الرحمن العسكر، كتب مقالًا تعريفيًا في جريدة الرياض في ١١/٨/١٤٢٠هـ عدد ١١٤٧٠.

٢ ـ ثم كتب د. إبراهيم السماري مقالًا طويلًا في الجريدة نفسها. ولم أقف عليه، لكن أخبرني به كاتبه.

٣ ـ لقيت الشيخ المعمَّر محمد صالح الأيوبي (ت ١٤٣٠) رَحِمَهُ اللَّهُ في مكة المكرمة عام ١٤٢٢ مع صاحبنا

---

(١) لم أتابع تقييد ما رأيته من تعليقاتهم ربما من عشر سنوات خلت.

الشيخ يوسف الصبحي فعرّفني إليه، وأهديته نسخة من «**المشوق**»، فاتصل بي بعد ثلاثة أيام وزارني في بيتي وقال: إنه عكف على الكتاب فقرأه في ثلاثة أيام، وكان عمره آنذاك قد جاوز الثمانين، وأعطاني ورقة بخطه فيها عدة أبيات من إنشائه احتفاءً بالكتاب، وهي:

يا سيّدًا شوّقتنا بمشوّق بستان عِرفانٍ حوى ألوانا
فاقطف كما تشأِ الثمارَ لذيذةً من مشمشٍ إن لم تشأ رمّانا
هو للمعارف والمعالي درة هو للشباب مؤلِّف عِمرانا
فاحفظ لما تصطاد من نفحاته لا تنفرنّ تكن إذًا خسرانا
والله يجزي للمؤلف جنةً بمشوّقٍ كرمًا بما أهدانا
ذاك المشوّق للحبيب وصحبه القلب يهفو بل يطِرْ جذلانا
قلب يعيش بحبّه فكأنه مع من أحبّ بجنة صِنوانا
المرء يحشر مع من أحبّ بشارة فاهنأ بِقُرّة عينكم مولانا

٤ ـ الشيخ د. عايض القرني قال على صفحته بتويتر: كتاب «**المشوق إلى القراءة**» للدكتور علي العمران، فيه من شَحْذ الهمم وإلهاب الحماس لطلب العلم ما يفوق الوصف.

٥ ـ الشيخ ناصر القطامي قال: كتاب «**المشوق إلى القراءة**» للشيخ علي العمران كتاب نفيس جدًّا، ستشعرون بعده بِنَهم للقراءة[١].

٦ ـ سجّلتُ حلقة في قناة المجد الفضائية، حول الكتاب، في برنامج «**قصة كتاب**» عام ١٤٣١هـ.

٧ ـ سجلت حلقة في إذاعة القرآن الكريم حول الكتاب في برنامج «**معكم على الهواء**» مع أخي الدكتور محمد السعيدي عام ١٤٣١هـ.

٨ ـ اختصر الكتاب أحد الأفاضل وسمى اختصاره «**الدرر المنتخبة من المشوق...**» وهو موجود على الشبكة الدولية للمعلومات.

٩ ـ سجّل أحد الأفاضل مادة الكتاب كاملة بالصوت على شريط، وهو أيضًا على الشبكة.

١٠ ـ علق مجموعة من الأفاضل على موقعي على الفيس بوك بانطباعاتهم حول الكتاب، وهي كثيرة جدًّا انتقيت منها نماذج:

---

(١) على صفحته بتويتر.

• كتاب قيم أفادني في حياتي العلمية كثيرًا، بل لا أبالغ إن قلت: إني كنت تائهًا قبل بزوغ فجر هذا الكتاب..!

• جزاك الله خيرًا يا شيخ على هذا الكتاب الرائع الماتع الذي يدفع الإنسان نحو القراءة دفعًا.

• شكر الله لكم يا شيخ عليّ على هذا الكتاب الماتع الذي لم أقض نهمتي منه على كثرة النظر فيه مرارًا. وهذا ليس مجاملة فلا حرمك الله أجر نفعنا والنهوض بهممنا.

• من أروع الكتب التي قرأتها وفيها حث عظيم على طلب العلم.

• لا أخفيك كبير إعجابي بهذا الكتاب النافع الماتع، فقد قرأته مرات ومرات... بل كلما قل عزمي وضعفت همتي قصدت الكتاب... وأما عن إهدائي لأحبتي هذا الكتاب فلا تسأل عنه.. ولو قُدّرت جائزة لأكثر مشترٍ له فما إخالني بالمنهزم.

* * *

وأختم هذه التقدِمة بالشكر لجميع الأفاضل الذين أرسلوا كلماتهم اللطيفة، أو ملاحظاتهم السديدة، أو ساعدوا في المراجعة، وأخص صديقي العزيز خالد بن أحمد الزهراني، والإخوة الكرام نبيل بن نصار السندي؛ وسعيد آل برمان، وحسن المحضار، وغيرهم. والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات.

وكتب

عليّ بن محمّد العمران

٤/ محرم/ ١٤٤٤هـ

مكة المكرمة شرَّفها الله

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فهذه رسالة تُجلّي لنا جانبًا مهمًّا من جوانب النموِّ العِلْمي، ورافدًا أساسًا من روافد التوسُّع المعرفي.

تكشف لنا هذه الرسالة عن صورةٍ مُشْرِقةٍ من حياة العلماء، ضربوا فيها أروعَ الأمثلة، وأصدقَ البراهين، وأجلى الدلالات على حبهم للعلم، وشَغَفِهم به، وتفانيهم من أجل تحصيله وطلبه.

هذه الأمثلة والبراهين كثيرة ومتنوِّعة، اصطفيتُ منها ما يتعلَّق بحياة العلماء مع الكتب، في اهتمامهم بها قراءةً وإقراءً، في تحصيلهم لها شراءً واستنساخًا، في شغفهم بها، وحرصهم عليها، واصطحابها معهم سَفَرًا وحضرًا، في مواقف عجيبة، وصورٍ مُعْجِبة، ولا عجبَ!

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«وأما عُشَّاق العلم فأعظم شغفًا به وعِشْقًا له من كلِّ عاشقٍ بمعشوقه، وكثيرٌ منهم لا يَشْغَلُه عنه أجملُ صورةٍ من البشر»**[1] اهـ.

وقال ـ أيضًا ـ: **«ولو صُوِّر العلمُ صورةً، لكانت أجملَ من صورة الشمس والقمر»**[2] اهـ.

أقول: فكيف يُلام إذًا من عَشِقَ العلمَ، وكيف يُتعجَّب ممن كَلِفَ به، وانقطعَ له؟!

١

غير خافٍ على عامة الناس ما للعلم من سُموّ المكانة وشرف المنزلة، وما لحامله من ذلك، ويزداد كلُّ ذلك تَبَعًا لشرف المعلوم، والتوسع فيه، وظهور أثره على حامله.

ولما كان فضل العلم بهذا الظهور، لم يكن بنا حاجة إلى إقامة البراهين، ونَصْب الأدلة، على الإشادة به، وإظهار محاسنه، فكلُّ ذلك مجموعٌ في كتب كَثيرة مفردة[3].

---

(١) «روضة المحبين» (ص٦٩). وانظر فصلاً في «لذة العلم» في «أبجد العلوم»: (١/ ١٠٠) للقنوجي، و«مداواة النفوس» (ص ٧٥) لابن حزم.

(٢) «روضة المحبين» (ص ٢٠١).

(٣) انظر فصلًا طويلًا حفيلًا في (العلم وفضله وشرفه، وبيان عموم الحاجة =

٢

الباعثُ لي على تصنيف هذا الكتاب وتأليفه أمران:

الأول: ما رأيتـه ـ ورآه غيري ـ من عُـزُوف كثير من (طلبة العلم!) ـ لا سـواهم ـ عن إيلاء كتـب العلم مكانتهـا، وإنزالها منزلتها، فاشتغلوا عنها بغيرها.

فجماعة منهم ظنـوا أنهم قد بلغوا من العلـم ما لا يُـحتاج معه إلـى مزيد قـراءةٍ واطـلاع، فقنعوا بمـا أحرزوه مـن ألقاب وشهادات، ومناصب ووجاهات!

= إليـه، وتوقُّـف كمـال العبد ونجاتـه في معاشِـه ومعـادِه عليـه) للإمام ابن قيم الجوزيـة في كتابـه «مفتـاح دار السـعادة»: (١/ ٢١٩ ـ ٥٥٥، ٢/ ٣ ـ ٣٩٨).

أقول: وفي بيان العلم وفضله مصنفات مفردة منها:

«فضـل العلـم والعلمـاء» لحميد بـن زيـاد (٣١٠)، «فرض طلـب العلم» للآجـري (٣٦٠)، «جامـع بيـان العلـم وفضلـه» لابـن عبد البـر (٤٦٣)، «الحث على حفـظ العلـم» للعسـكري، وابـن عسـاكر، وابـن الجوزي، و«جواهـر العقديـن فـي فضـل الشـرفين» للسـمهودي (٩٠٩)، و«التنبيـه والإعلام بفضـل العلم والأعـلام» للعميـري (١١٧٨)، و«تفضيل شـرف العلم على شرف النسب» لمحمد سعيد صقر (١١٩٤)، و«إرشاد الطلاب إلى فضيلة العلم والعمل والآداب» لمحمد بن مانع(١٣٨٥).

فما هو إلا أن حاز «**اللقب**» حتى أعرض عن الطَّلَب، وقد كان يدّعي العكس، يقول: دعوني أضع همَّ «**اللقب**» ثم أُمْعِن في الطلب! فما باله انقلب!

ويا ليته وقف هنا فحسب، لكنه اتكأ على أريكته وعرَّض الوساد، وتنمَّر على العباد، وانسلخ من طلب العلم إلى طلب الدنيا، فأصبح اللقب حينئذٍ خديعةً يخدع بها المرءُ نفسَه وغيره.

ثم لو كانت الألقاب تؤخذ عن أهليَّةٍ واستحقاق، لهان الخطْبُ وانقطع الخِطاب، لكن العكس هو الواقع، فأصبحتْ أحيانًا تُباع وتُشْترى، وأحيانًا تُعطى لبحوثٍ هزيلة، وأحيانًا لبحوث منقولة عن غيرها، وهكذا في سلسلة نكِدة من التخاذل العلمي، فهل يوثق بعد هذا بشهادةٍ أو لقب[1]؟!

---

(١) لكن بعض الصالحين لم يستطع التخلُّصَ من ضغط الواقع في اعتبار هذه (الألقاب السحرية!) كل شيءٍ، فمع يقينه أنها لا شيء إلا أنه ـ دائمًا ـ لا يستطيع أن يكتب اسمه دون أن يسبقه بـ (اللقب)، وتالله لو وضع قبل اسمه ما شاء من ألقابٍ وشارات لَمَا أغناه ذلك شيئًا! ولكنه اللقب، فمتى سُلِبَ سُلِبَ معه كلُّ شيءٍ.
وبعض هؤلاء يُعبِّر بطريقة أُخرى، فحالما يحصل على شهادة «اللقب» إلا ويسارع بوضعها في مكان بارزٍ في مكتبته محاطة بإطار جميل، ولسان حاله يقول: لله أبي! لقد بلغتُ مرتبة الراسخين!

وكم من شهاداتٍ يَغُرُّ جمالُها ... وقيمَتُها النَّقْشُ الذي في إطارِها

وما أصدق الشاعر محمد رضا الشَّبِيْبي العراقي في قوله:

فتنـةُ النـاسِ ـ وُقِيْنـا الفِتَنـا ـ باطلُ الحَمْدِ ومَكْـذوبُ الثَّنا
لم تزلْ ـ ويحكَ يا عصرُ أَفِقْ ـ عَصْـرَ ألقـابٍ كِبـارٍ وكُنـى
حَكَمَ الناسُ علـى الناسِ بما سـمعوا عنهم وغَضُّوا الأعْيُنا
فاسْتَحالت ـ وأَنا مِن بعضِهم ـ أُذنـي عَـيْـنًـا وعينـي أُذُنـا(١)

وجماعة منهم قنعوا بمتابعة ما تتسـارع شركات الحاسوب في إنتاجه، من أقراصٍ تحوي المئات بل الآلاف من الكتب في جميع الفنـون! وظنوا أن هذه تُغني عن شـراء الكتـب واقتنائها ومطالعتها ودَرْسـها! وما عَلِم هؤلاء (أو عَلِموا ولكن...) أنهم قد اسْتَسْـمنوا ذا وَرَم ونفخـوا في غير ضَرَم، فأنزلـوا هذه الآلة (الصمّـاء)(٢) منزلةً ليسـت لهـا، ووطّنوهـا مكانًـا ما ينبغي لها، أرادوا بهـا ـ وهيهات ـ أن يسـبقوا الرَّكْبَ، ويُحقِّقوا المسـائل، ويسـتدركوا علـى العلمـاء، أرادوا كلَّ ذلك = بِلَمْسـةٍ على زِرٍّ! فيا لله العجب! وأعجبُ منه: أن ينسبوا كل ذلك الفضل إلى

(١) انظر: «تغريب الألقاب العلمية» (ص ٣٣).
(٢) لا يُفْهَم من هذا أن الحاسـوب لا قيمة له ولا فائدة منـه، بل له فوائد كثيرة تُقَـدَّر بقدرهـا ولا تعـدو طَوْرَها، ولسـت هنـا لتعديد محاسـنه ولا لتبيين مزاياه!

أنفسهم (متوَهِّمين ومُوْهِمين)، فجَنَوا بذلك على أنفسهم، إذ حَسِبوا أنهم على شيءٍ، وعلى العلم، وعلى الناس!

الأمر الثاني ـ الداعي إلى تأليف الكتاب ـ: هو استثارة الهِمَم، وشَحْذ الخواطر، وتبصير طلاب العلم بما كان عليه سلفهم من العلماء والأئمة؛ في صبرهم وبذلهم في تحصيل العلم وقراءته وإقرائه.

ولا امْتِراءَ في أثر هذه الأمثلة الحيَّة والصور الصادقة من حياة تلك الصفوة من العلماء، في شَحْذ الهمة وإيقاظها، كما لا تخفى فائدتها في التعرُّف على طرائق أهل العلم في القراءة والمطالعة، والاستبصار بخبراتهم وتجاربهم للوصول إلى طريقةٍ مُثْلى وأسلوبٍ يُحْتَذَى.

وليس ذِكْر هذه الأمثلة والنماذج العجيبة من التغنِّي بأمجاد الأجداد والركون إليها، ولكنه كشف لصفحة مطويَّة من تاريخنا المجيد، علَّها تُسْهِم في إيقاظ ما فَتَرَ من الهمم، وتُشْعِل ما خبا من العزائم، وقد قال بعضهم: «**الحكايات جند من جنود الله يثبِّت بها من شاء من عباده**»[1].

---

(١) «أزهار الرياض»: (١/ ٢٢).

٣

إن الناظر في سِيَر العلماء يَخْلُص إلى حقائق مهمة ونتائج واضحة، منها: معرفتهم بقيمة هذه الثروة الهائلة[1] والكنوز العظيمة، لذا فقد أولوها عنايةً فائقةً، واهتمامًا واضحًا، وخدموها بجهودٍ ضخمة، ظهرت في صورٍ عديدة مما ستكشف هذه الرسالة عن بعضه.

وعليه فمن واجبات أهل العلم اليوم: تبصير النشئ بأهمِّية هذا التراث الذي خلَّفه الأجداد، فهو عُصَارة عقولهم لقرونٍ عديدة، وثمرة جمعهم وسهرهم لآماد مديدة.

إن من واجباتهم ـ أيضًا ـ النهوض بهذا التراث، والحِفاظ على هذه التركَة التي لا يَقْدُرها قدرَها إلا هم، ولا يستطيع الحفاظَ عليها حقًّا إلا هم.

---

(١) هي هائلة ضخمة بحقٍّ، وانظر فصلاً في بيان ذلك في «التراتيب الإدارية»: (٢/ ٤٥٢ ـ ٤٦٢) للكتاني، و«الفكر السَّامي»: (٢/ ٤٨ ـ ٥١) للحَجْوي، و«لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات» (ص ٣٩ ـ ٤١) للحلوجي، و«الكتاب في الحضارة الإسلامية» (ص ١٦٩ ـ ٢٤٤) ليحيى الجبوري.

٤

لعل من البديهي القول: إن الحِفَاظ على هذه الثروة لا يكون بمجرَّد رَصْفها في خزائن أنيقة، ولا بترتيبها وتزويقها وتنميقها، ولا بنشرها وتحقيقها، كلا! ليس بذلك فقط، لكن خير وسيلة لحفظها، وأنجع طريقة للحفاظ عليها هي: بعث الحركة العلمية وإنماؤها، وإيقاظ الهمم وإعلاؤها، بحيث نضيف كلَّ يوم إلى صفوف القراء (والقراء حقًّا) عددًا جديدًا، يعكُفُون عليها ويستجلون فوائدَها، فبهذه الطريقة، وبها وَحْدَها، تنمو وتكتمل كلُّ الوسائل المساعدة (من خَزْن ورَصْفٍ ونَشْرٍ...)، وسيسعى طلابُ العلم ورُوَّاد المعرفة حثيثًا تُجاه إنماء كلِّ ذلك بدافعٍ ذاتي واقتناع شخصي، لأنهم أصبحوا ساعتئذٍ في أمسِّ الحاجة إليها، ومن أعرف الناس بقيمتها.

فيوم كان العلماء يتنافسون في اقْتِناء الكتب، ويتبارون في تحصيلها واستنساخها، ويعكُفون على قراءتها وإقرائها (مما ستراه في هذه الرسالة) يوم كانوا كذلك، نشِطَت حركةُ التأليف والنسخ، بل وجميع ضروب خدمة الكتاب[١].

---

(١) انظر فصلًا في «حال ملوك المسلمين في صيانة كتب السلف» في «خزائن =

فـإذا أوجدنا مَـن يعشـق الكتـاب ويعشـق القـراءة والعلم والمعرفة وُجِد معهم كلُّ شيءٍ، وإلا فقل لي ـ بربك ـ: ما قيمة كل تلك الوسائل ولا مستفيد ولا راغب ولا طالب!؟

٥

إنَّ ضعفَ الهمم عن القراءة وطلب العلم كان سـببًا رئيسًا في ضياع جزءٍ ليـس بالقليل من هذه الثـروة، كما كان للجهل، وعدم الوعـي بقيمتها، وانتشـار الحروب والفتـن = آثارٌ أخرى لا يُستهان بها.

وقد أنحى كثير من أهل العلم(١)، ومنهم الإمام ابن الجوزي (ت ٥٩٧) باللائمة على ضعف الهِمَّة فـي اندثار كثير من كتب

= الكتـب العربيـة»: (٣/ ٨٥٥ ـ ٨٥٧) لدي طـرَّازي، و«فصلًا في اسـتكثار المسلمين من نسخ الكتب» فيه ـ أيضًا ـ: (٣/ ٨٩٨ ـ ٨٩٩).

(١) منهـم الإمـام ابن جريـر الطبـري (٣١٠) فـي خبره المشـهور فـي تدوين التفسـير والتاريـخ. وكذلك الإمـام ابن عبد البـر (٤٦٣) فـي «جامع بيان العلم»: (١/ ٢١)، قال وهو يتحدّث عـن دروس العلم: «وإن كان لعَمْري قد دَرَس منه الكثير بعدم العناية، وقِلَّة الرِّعاية، والاشتغال بالدنيا، والكَلَب عليهـا» اهـ. ومثلهـم الواحـدي (٤٦٨) فـي مقدمـة تفسيره «الوجيـز»: (١/ ٨٥ ـ ٨٦).

العلم: قال: «**كانت همم القدماء من العلماء عَلِيَّة، تدلُّ عليها تصانيفهم، التي هي زبدة أعمارِهم، إلا أن أكثر تصانيفهم دَثَرت، لأن هِمم الطلاب ضعُفت، فصاروا يطلبون المختصرات ولا ينشطون للمطوَّلات، ثم اقتصروا على ما يدرسون به من بعضها، فدَثَرت الكتب ولم تُنسخ**»[1] اهـ.

فإذا كان هذا تعليل ابنِ الجوزيِّ في تلك الحقبة، وهو ممن أدرك أبا الوفاء ابنَ عقيل الحنبلي (ت ٥١٣) صاحب كتاب «**الفنون**» في نحو (٨٠٠ مجلد)[2]، وأدرك ابنَ الخشَّاب النحوي (ت ٥٦٧) صاحب التصانيف العديدة والمكتبة الضخمة، وأبا العلاء الهَمَذَاني (ت ٥٦٩) العلامة المتفنن، عاشق الكتب، والوزير الصالح العالم ابن هُبَيرة[3] (ت ٥٦٠) صاحب الأيادي البيضاء على العلم والعلماء، وغيرهم، فماذا نقول إذاً في عصرٍ قد اجتمع فيه إلى ضعفِ الهِمَم، وخَوَر العزائم، سَيْلٌ هادر من المُلْهِيات والمشغلات عن القراءة، بل عن العلم جملةً!

---

(١) «صيد الخاطر» (ص ٥٥٦ ـ ٥٥٧).

(٢) وقد رآه ابن الجوزي ونقل منه.

(٣) والأربعة حنابلة ـ رحمهم الله تعالى ـ.

وسـنفقد البقيّة الباقية مـن هذا التراث إذا نحن انسـقنا أمـام تلـك المُلْهيـات، وشـغلتنا تلـك الصـوارف بِبَرِيْقهـا وبَهْرجها، فيا لها من خسارةٍ فادحة وغَبْن عظيم! فهل يجوزُ لطالبِ علمٍ أن يكون مُعِينًا ـ ولو بأقلِّ القليل ـ على ضياع شيءٍ من هذا التراث؟!

كلَّا ثم كلَّا!

٦

قسَّمت هذه الرِّسالة إلى فصول:

الأول: الحثُّ على الازدياد من العلم والتبحُّر فيه.

الثاني: الاستزادة من العلم حتى في ساعة الاحتضار.

الثالث: حرص العلماء وشغفهم بالكتب، قراءةً وتحصيلًا.

الرابع: قراءة المطوَّلات في مجالسَ معدودة.

الخامس: تَكْرار قراءة الكتاب الواحد المرات الكثيرة.

السَّادس: تدريس الكتاب الواحد المرات الكثيرة.

السابع: نَسْخ الكُتُب وما تحمَّلوه في ذلك.

الثامن: إيقاظات وتنبيهات.

ونصوص هـذه الرسـالة لا أعلمها مجموعـةً في كتاب، ولا مدوَّنة فـي مكانٍ واحـدٍ، جمعتُها من بطون كتب السِّـيَر والتراجم، والتاريخ والطبقات، فضممـتُ النظيرَ إلى نظيره، والقصةَ إلـى أُختهـا، بعد طول نظـرٍ وفحـص، لا أقول هذا تكثُّرًا ولا تزيُّدًا، لكن أقوله تحدُّثًا بالنعمة ودفعًا للظِّنَّة.

وليس قصـدي استيعاب كل ما يمكن أن تنطـوي عليه هذه الفصول من أخبار وقصص، إذ محاولة ذلك غير مُـجْدٍ ولا مطلوب؛ أما كونه غير مُـجْدٍ، فلأنَّ استيفاء ذلك يُضاعف حجم الكتاب، فنحتاج حينئذٍ إلى مُشـوِّق يُشـوّقنا إلى قراءة «المشوِّق»!

وأما كونه غير مطلـوب، فلأن محاولـة ذلك ضرب من الخيال، وسـوءٌ في التدبير، فهـل يحيط أحدٌ بكتـب التاريخ ومُتعلَّقاته!؟

وأنا إن شـاء الله غير مُسْـتنكفٍ ولا مُسْـتكبر عـن قبول استدراك أو ملاحظة، بل صَدْري أرحب لتقبُّل ذلك من ثناء مثنٍ أو مدح مادح!

* * *

أسـأل اللهَ تعالـى أن يُحقِّـق ما أَمَّلْته من هـذا الكتاب، وأن يتقبَّل ذلك عنده بقبولٍ حسن، اللهم علِّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما عَلَّمتنا، وزِدنا عِلمًا، إنك على كل شيءٍ قدير، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه.

وكتب

علي بن محمد العمران

الفصل الأول

في الحثِّ على الازدياد من العلم والتبحُّر فيه

في نـزول أوَّل آيـةٍ في القـرآن، وهي قولـه تعـالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١] مـن الـدَّلالات والمعانـي ما لا يمكـن حصـرُه، وبخصـوص موضوعنا فإنه يُفهم مـن قولـه: (اقْـرَأْ) ـ وهو فعـل أمر مـن (قَـرَأ) ـ الأمرُ الجازم الحـازم بالقـراءة، والحث على تعلّمهـا وتعليمها[1]. وفي هذه اللفتة غَناء عن كلام كثير في هذا الموضوع.

أمْرُ النبي ﷺ بالزيادة من العلم

ثم جاءَ الأمرُ القرآنـي الآخر، لتأكيد القضيّـة والحثّ على طلب المزيد من العلـم، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وكفى بهذا شرفًا للعلم؛ أنْ أمرَ نبيَّه أن يسأله المزيدَ منه**»[2] اهـ.

---

(١) انظر: «شواهد في الإعجاز القرآني» (ص ٨٤) للأستاذ عودة أبو عودة.

(٢) «مفتاح دار السعادة»: (١/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤).

وقال الإمـام ابن كثير فـي «**تفسـيره**»[١]: «**أي: زدني منك علمًا، قال ابنُ عُيينـة** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **ولم يزل** ﷺ **في زيادة حتَّى توفَّاه الله** عَزَّوَجَلَّ» اهـ.

وقد قيل: ما أمرَ اللهُ رسـولَه بطلبِ الزيادة في شـيءٍ إلا في العلم[٢].

خبَرُ نبيِّ الله موسى ﷺ في طلب الزيادة منه

والعالـم كلما ازداد علمًا ازداد معرفـة بفضل العلم ومنزلته ومكانته، وبمقـدار ما فاته منه ويفوت = فتتوق نفسُـه ـ حينئذٍ ـ إلى المزيد منه، ولو لقي في ذلك الألاقي.

ففي خبر كليم الله موسى ﷺ الذي قصَّه القرآن الكريم في سـورة الكهف الآيات (٦٠ ـ ٨٢)، وذَكَـره النبيُّ ﷺ لأصحابه

---

(١) (٣/ ١٧٥)، وانظر: «روح المعاني»: (١٦/ ٢٦٩) للآلوسي.

(٢) انظـر: «الكشّـاف»: (٢/ ٤٤٨)، و«تفسـير الخـازن»: (٣/ ٢٨٢)، و«فتـح الباري»: (١/ ١٧٠)، و«محاسن التأويل»: (١١/ ١٩٧).

فائدة: قال الزمخشري: «هذه الآية متضمِّنة للتواضع لله والشكر له، عندما علم مـن ترتيب التعلُّـم، أي: علمتني يـا ربِّ لطيفةً في بـاب التعلُّم وأدبًا جميلًا ما كان عندي، فزِدني علمًا إلى علم، فإن لك في كلِّ شـيءٍ حكمة وعلمًا» اهـ. «الكشاف»: (٢/ ٤٤٨)، وعنه ما بعده من التفاسير.

كما في «**الصحيحين**»[١]، وفيه أن النبي ﷺ قال: «**بينما موسى في ملإٍ من بني إسرائيل إذ جاءه رجل فقال: هل تعلم أحدًا أعلمَ منك؟ قال موسى: لا. فأوحى الله إلى موسى: بلى، عَبْدنا خَضِر**[٢]**، فسألَ موسى السَّبيلَ إليه...**» الحديث.

قال أبو العبَّاس القرطبي[٣]: «وفيه من الفقه: رِحْلة العالِم في طلب الازدياد من العلم، والاستعانة على ذلك بالخادم والصاحِب، واغتنام لقاء الفُضَلاء والعلماء، وإن بَعُدت أقطارُهم، وذلك كان دأب السَّلف الصالح، وبسبب ذلك وصلَ المرتحلون إلى الحظ الراجح، وحصلوا على السَّعي الناجح، فَرَسخت في العلوم لهم أقدامٌ، وصحَّ لهم من الذِّكر والأجر أفضلُ الأقسام» اهـ.

قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»[٤]: «وموسى عليه الصلاة والسلام لم يمنعه بلوغه من السِّيادة المحلّ الأعلى من طلب العلم وركوب

---

(١) البخاري رقم (٧٤)، ومسلم رقم (٢٣٨٠) من حديث أُبيّ بن كعبٍ رضي الله عنه.

(٢) بفتح أوله وكسر الثاني، أو بكسر أوله وإسكان الثاني، وجهان.

(٣) في «المفْهِم». (٦/ ١٩٦)، وانظر «مفتاح دار السعادة»: (١/ ٤٨٧ ـ ٤٨٨)، ففيه كلام نفيس لولا طوله لنقلته.

(٤) (١/ ٢٠٢، ٢٠٤)، وانظر «عمدة القاري»: (٢/ ٦٤)، و«إكمال المعلم»: (٧/ ٣٦٧).

البحر لأجله... و[فيه ـ أي الحديث ـ]: ركوب البحر في طلب العلم، بل في طلب الاستكثار منه» اهـ.

وذكر الماوردي[١] عن ابن عباسٍ ﵄ قال: لو كان أحدٌ يكتفي من العلم لاكتفى منه موسى ـ على نبينا وعليه السلام ـ لمَّا قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ [الكهف: ٦٦].

أقول: فهذه حال الأنبياء، والعلماءُ ورثتُهم، ولم يَرِثوا منهم إلا العلم، فطلبوه وحصَّلوه وتعبوا في سبيله، فأخذوا بحظ وافرٍ.

شيءٌ من حال الصحابة في الازدياد منه

لقد لحظَ الصحابةُ ﵃ ما كان عليه قدوتهم ﷺ من حِرْصٍ على العلم، فاقتفوا أثره، وضربوا أمثلة نادرة في الحرص عليه والتفاني من أجله.

فهذا عبد الله بن مسعود ﵁ كان إذا تلى قولَه تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] قال: «**اللهم زِدْني عِلْمًا وإيمانًا ويقينًا**»[٢].

---

(١) في «أدب الدنيا والدين» (ص ١٢٤)، ونَسَبَه في «البيان والتبيُّن»: (١/ ٢٥٨) إلى قتادة.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور، وعبد بن حُميد كما في «الدر المنثور»: (٤/ ٥٥٣).

وقد بلغ رضي الله عنه من شِدَّة اجتهاده وطلبه أن قال: «والله الذي لا إله غيره، ما أُنزلت سورةٌ من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آيةٌ من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أُنزلت، ولو أعلم أحدًا أعلمَ مني بكتاب الله تبلُغُه الإبل لركبتُ إليه»(١).

وهذا أبو هريرة رضي الله عنه حافظ الصحابة يصفه صلى الله عليه وسلم بالحرص على العلم، فقد عَقَد البخاريُّ في «**صحيحه**»(٢): (بابٌ الحرصُ على الحديث) وذكر فيه حديثَ أبي هريرة رضي الله عنه وسؤاله النبي صلى الله عليه وسلم عن أسعد الناس بشفاعته، وقوله له: «**لقد ظننتُ يا أبا هريرةَ أن لا يسألني عن هذا الحديثِ أحدٌ أوَّلُ منكَ، لِمَا رأيتُ من حِرْصِكَ على الحديثِ...**».

قال البدر العيني في «عمدة القاري»(٣): «فيه الحرص على العلم والخير، فإن الحريص يبلغ بحرصه إلى البحث عن الغوامض ودقيق المعاني، لأن الظواهر يستوي الناسُ في السؤال عنها، لاعتراضها أفكارهم، وما لَطُفَ من المعاني لا يسأل عنها

---

(١) أخرجه البخاري رقم (٥٠٠٢)، ومسلم رقم (٢٤٦٣).
(٢) «الفتح»: (١/ ٢٣٣).
(٣) (٢/ ١٢٨).

إلا الراسخ فيكون ذلك سببًا للفائدة، ويترتب عليها أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة» اهـ.

وهذا جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه يرحل من المدينة النبوية إلى مصر ـ مَسِيرة شهر على البعير ـ من أجل سماع حديثٍ واحد، خاف أن يموتَ ولم يَسْمَعْه[1].

وأخرج الدارمي[2] بسندٍ صحيح عن عبد الله بن بريدة: **«أن رجلًا من أصحاب النبي ﷺ رحلَ إلى فَضَالَة بن عُبيد وهو بمصر، فقدمَ عليه، فقال: أما إني لم آتِكَ زائرًا، ولكن**

---

(١) أخرجه أحمد: (٣/ ٤٩٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (ص ٢٨٧)، وعلَّقه مجزومًا به في «الصحيح» (الفتح): (١/ ٢٠٨)، والحاكم: (٢/ ٤٢٧)، والخطيب في «الرحلة» (ص ١٠٩ ـ ١١٤) من طريق عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابرٍ به، وابن عقيلٍ مُتكلَّم فيه من قِبَل حفظه.
وله طريق أخرى عن الحجَّاج بن دينار، عن محمد بن المنكدر، عن جابر به. أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين»: (١/ ١٠٤)، وتمَّام في «الفوائد» رقم (٩٢٨).
قال الحافظ في «الفتح»: (١/ ٢٠٩): «إسناده صحيح».
وله طريق ثالثة عن أبي الجارود العبسي عن جابر. أخرجه الخطيب في «الرحلة» (ص ١١٥)، وضعفه الحافظ في «الفتح».

(٢) «السنن»: (١/ ١٥١)، والخطيب في «الرحلة» (ص ١٢٤ ـ ١٢٥) كلاهما من طريق يزيد بن هارون عن الجُريري به.

سـمعتُ أنا وأنتَ حديثًا من رسـول الله ﷺ رجوتُ أن يكون عندك منه علم...» الحديث.

وعدَّد الحافظ في «**الفتح**»: (١/ ٢١٠) أمثلة ثم قال: «**وتتبُّع ذلك يكثُر**».

وقد ألَّف الخطيبُ كتابـه «**الرحلة في طلب الحديث**» فيمن رحل في طلب حديث واحد.

شيء مما جاء عن السَّلف

وهكـذا كان ذلـك الجيـل الفريـد قـدوةً لمن بعدهـم، في عكوفهم على العلم، وطلبهم للاستزادة منه، فاحتذوا حذوَهم، واقتفوا أثرَهم، وشواهد ذلك ماثلة، هذه نبذة منها:

فهؤلاء تلاميذ ابن مسعود رضي الله عنه في الكوفة ـ علقمة والأسود وغيرهـم ـ كانوا إذا سـمعوا الحديـث والعلم من شـيخهم، لم يشـف ذلك مافي صدورهم مـن النَّهَمة، فيرحلـون إلى المدينة النبويـة؛ طَلَبًـا للعلـوِّ وزيـادةً فـي التثبُّـت، وإمعانًا فـي الطلب والتلقّي من أفواه العلماء[1].

---

(١) وانظـر نماذج أخرى فـي كتاب الخطيب السـالف، و«سـنن الدارمي»: (١/ ١٤٩ ـ ١٥١)، و«فتح الباري»: (١/ ٢٣١ ـ ٢٣٢).

قال الأعمش[١]: كان مجاهد (ت ١٠٤) لا يسمع بأُعجوبة إلا ذهب لينظر إليها! ذهب إلى حَضْرَمَوْت ليرى بئر بَرَهُوت، وذهب إلى بابل وعليه والٍ، فقال له مجاهد: تعرض عَلَيَّ هاروت وماروت...؟

قال يحيى بن سعيد القطان[٢]: ما رأيتُ أحفظَ منه ـ أي: سفيان الثوري (ت ١٦١) ـ كنتُ إذا سألته عن مسألةٍ أو عن حديثٍ ليس عنده، اشتدَّ عليه.

فلم يقف العلماء في طلبهم للعلم والمعرفة عند حدٍّ محدود، بل استوعبوا قدر الاستطاعة والطاقة، فضربوا بذلك أعجبَ الأمثلة، وأغربَ السِّيَر.

وذكر ابن حَزم[٣] عن يحيى بن مجاهد الزاهد قال: كنتُ آخذ من كلِّ علم طَرفًا، فإنَّ سماع الإنسان قومًا يتحدثون وهو لا يدري ما يقولون غُمَّة عظيمة، أو كلامًا هذا معناه.

قال أبو محمد (أي ابن حزم): «**ولقد صدق** رَحِمَهُ اللهُ».

---

(١) «تذكرة الحفاظ»: (١/ ٦٢).

(٢) المصدر نفسه: (١/ ٢٠٤).

(٣) «رسالة مراتب العلوم ـ ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي»: (٤/ ٧٢).

وهذا الإمام الدارقطني (ت ٣٨٥) رَحِمَهُ اللَّهُ وهو مَنْ هو تضلُّعًا في علوم الحديث والفقه والقراءات، إلا أنه كان حُفَظَةً للأخبار والنوادر والحكايات.

قال الأزهري[1]: كان الدارقطني ذكيًا، إذا ذكر شيئًا من العلم (أيّ نوع كان) وجد عنده منه نصيب وافِر، لقد حدّثني محمد بن طلحة النعالي أنه حضر مع الدارقطني دعوةً، فجرى ذِكْر الأَكَلَة، فاندفعَ الدارقطنيُّ يورد نوادر الأَكَلَة حتى قطع أكثر ليلته بذلك.

وقال الإمام محمد بن عبد الباقي الأنصاري (ت ٥٣٥) عن نفسه[2]: «حفظتُ القرآن ولي سبع سنين، وما من علمٍ في عالم الله إلا وقد نظرتُ فيه، وحصَّلتُ منه بعضه أو كله».

ولما أُسِر في أيدي الروم قيَّدوه، وجعلوا الغل في عنقه، وأرادوا منه أن ينطق بكلمة الكفر فلم يفعل، وتعلَّم منهم الخطَّ الرومي.

أقول: وما سيرة أبي محمد ابن حزمٍ (ت ٤٥٦)، وابن عبد البر النَّمَري (ت ٤٦٣)، والخطيب البغدادي (ت ٤٦٣)، وشيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨)، وابن الوزير اليماني (ت ٨٤٠)، والحافظ ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢)، والجلال السيوطي (ت ٩١١)،

---

(١) «تذكرة الحفاظ»: (٣/ ٩٩٣).

(٢) «الذيل على طبقات الحنابلة»: (١/ ١٩٤).

ومرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥)، والشوكاني (ت ١٢٥٠) وغيرهم = ببعيدةٍ عن أذهاننا، وما خلَّفوه من تراثٍ هائل متنوّع خَيْر حافظ وشهيد على مدى تبحّرهم وتفنّنهم في العلوم والمعارف.

وخذ مثالًا للدلالة على سَعَة اطلاع شيخ الإسلام ابن تيمية، قال الصفديُّ[1]: «أخبرني المولى علاء الدين عليُّ بن الآمدي ـ وهو من كبار كُتَّاب الحساب ـ قال: دخلتُ يومًا إليه أنا والشمس النفيس عامل بيت المال ـ ولم يكن في وقته أكتبَ منه ـ فأخذ الشيخ تقي الدين يسأله عن الارتفاع، وعما بين الفَذْلكة واستقرار الجملة من الأبواب، وعن الفَذْلكة الثانية وخَصْمها، وعن أعمال الاستحقاق، وعن الخَتْم والتوالي، وما يُطلب من العامل.

وهو يجيبُه عن البعض، ويسكت عن البعض، ويسأله عن تعليل ذلك، إلى أن أوضح له ذلك وعلَّله، قال: فلمَّا خرجنا من عنده قال لي النفيس: والله تعلَّمت اليومَ منه مالا كنت أتعلمه. انتهى ما ذكره علاءُ الدين».

واستمع إلى هذا الوصف العجيب، الذي يُوْقِفُك على سَعَة اطلاع شيخ الإسلام، ذكر السخاوي في «الجواهر

(١) في «الوافي» انظر: «الجامع لسيرة شيخ الإسلام» (ص ٣١٠) لعلي العمران وعزير شمس.

والدرر»[١] عن القاضي شمس الدين بن الديري يقول: «سمعتُ الشيخَ علاء الدين البسطامي ـ ببيت المقدس ـ يقول وقد سأله: هل رأيت الشيخ تقيَّ الدين ابن تيميَّة؟ فقال: نعم. قلتُ: كيف كانت صِفَتُه؟ فقال: هل رأيتَ قُبَّةَ الصَّخرة؟ قلت: نعم. قال: كان كقُبَّة الصخرة مُلِئ كتبًا لها لسان ينطق!» اهـ.

ولا ريبَ أن هذا التنوع المعرفي لم يتَأتَّ من فراغ وبطالة، ولكنه جُمِع بطول السَّهر، واغتنام العمر، ومنادمة الكتاب، والاستِغناء به عن الصّحْب والأحباب.

علماء يعرفون علومًا لا يعرفها أهل عصرهم

وإن تَعْجَب فَعَجَبٌ ما وجدته في تراجم بعض العلماء، وما ذُكر من سَعَة اطلاعهم وتنوُّع معارفهم، بل تصريح جماعةٍ منهم بمعرفتهم لعلومٍ لا يعرفها أهلُ عصرهم، بل لا يعرفون أسماءها! وإليك ما وجدت:

١ ـ كان ابن الخشَّاب النحوي الحنبلي (ت ٥٦٧) يقول: إني متقنٌ في ثمانية علوم، ما يسألني أحدٌ عن علم منها، ولا أجد لها أهلًا![٢].

---

(١) (١/ ١١٧).

(٢) «الذيل على طبقات الحنابلة»: (١/ ٣١٧).

٢ ـ وكان أبو البقاء السُّبْكي (ت ٧٧٧) يقول: أعرف عشرين علمًا، لم يسألني عنها بالقاهرة أحد[١]!

٣ ـ وقال محمد بن أبي بكر بن جَمَاعة (ت ٨١٩): أعرف خمسة عشر علمًا، لا يعرف علماء عصري أسماءها![٢].

٤ ـ ويُروى أن محمد بن أحمد بن عثمان بن عليم المالكي (ت ٨٤٢) قال: أعرف عشرين علمًا ما سُئلْتُ عن مسألةٍ منها![٣].

٥ ـ وكان أحمد بُو نافع الفاسي (ت ١٢٦٠) يقول: عندي أربعة وعشرون علمًا، لم يسألني عنها أحدٌ![٤].

٦ ـ وفي ترجمة أبي الطيب عبد المنعم الكندي (ت ٤٣٥)، حكى بعضُهم أنَّه دخلَ عليه، فوجَدَه ينظر في اثني عشر علمًا، وكان له حظ من الحسابِ والهندسةِ والعلوم القديمةِ[٥].

---

(١) «درَّة الحِجال»: (٢/ ١٣٢).

(٢) «البدر الطالع»: (٢/ ١٤٨).

(٣) «البدر الطالع»: (٢/ ١١٣)، وكان مع هذا ربما احتاج فيبيع بعض نفائس كتبه!

(٤) «فهرس الفهارس»: (١/ ١٢٤).

(٥) «ترتيب المدارك»: (٨/ ٦٧). و«معالم الإيمان»: (٣/ ١٨٤).

٧ ـ وانظر ما ذكره الجبرتي المؤرِّخ[١] عن والده العلامة حسن الجبرتي الكبير (ت ١١٨٨) من تفنُّنه في علوم الشرع، ثم اعتكافه عشر سنوات (١١٤٤ ـ ١١٥٤) لدراسة (العلوم التجريبية) من الهندسة والكيمياء والفلك والصنائع الحضارية كلِّها، حتى النِّجارة والخِراطة والحِدادة والسَّمكرة والتجليد والنقش والموازين، حتى صار بيته زاخِرًا بكلِّ أداةٍ في صناعةٍ وكلِّ آلةٍ...

فتزوَّد من العلم والْحَق بالرَّكب.

قال الماوردي في «**أدب الدنيا والدين**»[٢] ـ وهو يرشد الطالب ـ: «ولا يَقْنَع من العلم بما أدرك، لأن القناعة فيه زهدٌ، والزُّهد فيه تركٌ، والتركُ له جهلٌ!

وقد قال بعض الحكماء: عليكَ بالعلمِ والإكثار منه، فإن

---

(١) «تاريخ الجبرتي»: (١/ ٣٩٧)، وانظر: «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»: (ص ٨٢ ـ ٨٥) للعلامة محمود شاكر رَحِمَهُ اللهُ وهو مهم.
وذكر أبو المواهب الحنبلي في «مشيخته» (ص ٨٩) في ترجمة شيخه أيوب بن أحمد الحنفي الخلوتي (ت ١٠٧١) أنه كان يقول: أعرف ثمانين عِلْمًا!
أقول: الظاهر أن هذه (الثمانين) من علوم أهل التصوُّف (العلوم الباطنة) التي هي عَيْن الجهل بالله وشرعه!
(٢) (ص ١٢٥).

قليلَه أشبه شيءٍ بقليل الخير، وكثيره أشبه شيءٍ بكثيره، ولن يعيب الخير إلا القِلَّة، فأمّا كثرتُه فإنها أُمنِية» اهـ.

ومن فوائد الاستمرار في طلبه ودوام التزوّد منه ما ذكره ابن الجوزي في «**صيد الخاطر**»[١] قال: «أفضل الأشياء التزيّد من العلم، فإنه من اقتصرَ على ما يعلمه فظنَّه كافيًا اسْتَبَدَّ بِرأْيه، وصار تعظيمه لنفسه مانعًا من الاستفادة. والمذاكرة تبيِّن له خطأه...».

وأنشد بعضهم في طلب الاستزادة من العلم، وعدم الاقتصار على فنٍّ:

احرص على كلِّ علمٍ تبلغ الأملا
ولا تواصل لعلمٍ واحدٍ كسلا
النحلُ لما رَعَتْ من كلِّ فاكهةٍ
أبدت لنا الجوهرين: الشمعَ والعَسَلا
الشمع بالليل نورٌ يُسْتضاءُ به
والشهدُ يُبري بإذن البارئِ العِلَلا[٢]

---

(١) (ص١٥٨).

(٢) «درة الحِجال»: (٣/ ٤٩).

الفصل الثاني

الاستزادة من العلم حتى في ساعة الاحتضار

ساعة الاحتضار لا يمكن لأحدٍ أن يصفَ حقيقتها أو يصلَ إلى كُنْهِها، لكن الكلُّ يعلم أنها ساعة رهيبة ولحظة مُذهِلة، إنها ساعة الانتقال والتحوُّل من الدنيا إلى الآخرة، من الحياة إلى الموت، هل هناك ساعة في الدنيا أرهب من هذه؟! هل هناك ساعة في الدنيا أشد حرجًا وأكثر شغلًا منها؟! كلا.

فإذا كانت تلك الساعة بهذا الوصف، ثم نعلم أنّ ناسًا مِن الناس في (هذه الساعة) يتذاكرون العلم، ويقيّدون الفوائد، ويحرصون على ذلك كلِّه، كأقوى ما يكونون صِحَّةً، وكأشدِّ ما يكونون نَشَاطًا = فهذا والله مما يبعث على الدهشة، ويدعو إلى الحيرة!

ولعلّ سرَّ قدرتهم على ذلك ـ بعد عون الله تعالى ـ هو شِدَّة النَّهَمة، وسموّ الهِمّة، فإنها تفلّ أصفادَ الحديدِ وتُلين صمَّ الصخور!

قال العلامة ابن الجوزي[(١)]:

لـي هِـمّةٌ فـي العِلْـم مـا إنْ مثلُها
وهي التي جَنَـتِ النُّحُوْلَ هي التي
خُلِقت من العِلْق العظيمِ إلى المُنَى
دُعِـيَتْ إلـى نَـيْل الكـمـالِ فَلبّتِ

وهذا مصداق خبر النبيِّ ﷺ: «مَنْهُومانِ لا يَشْـبَعَانِ: طالبُ عِلْمٍ وطالبُ دُنْيا»[(٢)].

---

(١) انظر: «ذيل الروضتين» (ص ٢٥)، و«السير»: (٢١/ ٣٧٩)، في قصيدة له.

(٢) هـذا الحديـث جـاء مـن روايـة جماعـةٍ مـن الصحابـة ﷺ وهـم: أنس، وابن عباس مرفوعًا وموقوفًا، وابن مسعود، وعائشة، وأبو سعيد الخدري، وابن عمر. وجاء ـ أيضًا ـ من مرسل الحسن، وموقوفًا على كعب الأحبار.
أحسـنها من رواية أنسٍ وابن عباس، فـالأول أخرجه الحاكـم: (١/ ٩٢)، والبيهقي في «الشعب» (٩٧٩٨) و«المدخل» ـ كما في «المقاصد: ٤٣٤» ـ وابن عسـاكر في «تاريخه»: (٤١/ ٢٨٦) من طريق أبـي عوانة، عن قتادة، عن أنسٍ به.
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ولم أجد له علة» ووافقه الذهبي.
وحديث ابن عباس أخرجه إسحاق بن راهويه في «مسنده» ـ كما في «المطالب العاليـة»: (٣/ ٣٢١) ـ وأبو خيثمة في «العلم» رقم (١٤١)، والبزار (الكشـف: ١/ ٩٥)، والطبراني في «الكبير»: (١١/ ٧٦ ـ ٧٧) رقم (١١٠٩٥)، و«الأوسط»: =

ولما سُئِل الإمام أحمد: إلى متى تطلب العلم؟ قال: من المحبرة إلى المقبرة.

تلك قصص وأخبار مما حفظه لنا التاريخ وسطرته الكتب، فثبت وصحّ؛ ليبقى عبرةً للطالب وعِظة للخالف، وحاديًا نتعلل به إذا نحن سرنا في طريق قلّ فيه الطالب، ورغب عنه الصاحب.

فإليك ما وجدنا من خبرهم في ذلك:

خبر أبي يوسف القاضي (ت ١٨٢)

ذكر القرشي في «**الجواهر المُضِيَّة**»(١)، والمولى تقي الدين التميمي في «**الطبقات السنية**»(٢) في ترجمة إبراهيم بن الجراح

= (٦/ ٣١٣)، وأحمد في «الزهد» (ص ٢١٥)، والعسكري في «الحث على حفظ العلم»: كما في «المقاصد»، وابن الجوزي في «العلل»: (١/ ٩٤).
كلهم من طريق ليث بن أبي سُلَيم عن مجاهد (في الزهد، وعلل ابن الجوزي: عن طاووس، وفي البزار: على الشك عن طاووس أو مجاهد) عن ابن عباس ـ وأحسبه قد رفعه ـ عن النبي ﷺ بنحوه.
وفيه ليث بن أبي سليم ضعيف الحديث، وبه أعلَّه الهيثمي في «المجمع»: (١/ ١٤٠) والحافظ في «المطالب»: (٣/ ٣٢١).
وأخرجه الدارمي: (١/ ١٠٨) من طريق إسماعيل بن أبان عن عبد الله بن إدريس عن ليث عن طاووس عن ابن عباسٍ موقوفًا.

(١) (١/ ٧٦).

(٢) (١/ ١٩٠ ـ ١٩١) ولم يرد فيه جوابه الثاني: «قلت: ماشيًا...».

التميمي مولاهم ـ تلميذ أبي يوسف وآخر من روى عنه ـ قال: «أتيته أعوده، فوجدته مغمًى عليه، فلما أفاق قال لي: يا إبراهيم! أيُّهما أفضل في رمي الجمار، أن يَرْمِيَها الرجلُ راجلًا أو راكبًا؟

فقلت: راكبًا. فقال: أخطأتَ!

قلتُ: ماشيًا. قال: أخطأتَ!

قلت: قل فيها ـ يرضى الله عنك ـ.

قال: أما ما يوقف عنده للدعاء، فالأفضل أن يرميه راجلًا، وأما ما كان لا يوقف عنده، فالأفضل أن يرميه راكبًا[1].

ثم قمت من عنده، فما بلغتُ بابَ داره حتى سمعتُ الصُّرَاخَ عليه، وإذا هو قد مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ».

خبر أبي زُرْعة الرازي (ت ٢٦٤)

قال ابنُ أبي حاتم في «**تقدمة الجرح والتعديل**»[2]: سمعتُ أبي يقول: مات أبو زُرعة مطعونًا مبطونًا يعرق جبينُه في النزع،

---

(١) انظر «المجموع»: (٨/ ١٦٨)، و«أضواء البيان»: (٥/ ٣٠٨) وقال: «وأظهر الأقوال في المسألة هو الاقتداء بالنبي ﷺ، وهو قد رمى جمرة العقبة راكبًا، ورمى أيام التشريق ماشيًا ذهابًا وإيابًا. والله تعالى أعلم» اهـ.

(٢) (ص ٣٤٥).

فقلت لمحمد بن مسلم (ابن وَارَة): ما تحفظ في تلقين الموتى: لا إله إلا الله؟ فقال محمد بن مسلم: يروى عن معاذ بن جبل.

فمن قبلِ أن يَسْتتم رفع أبو زرعة رأسه وهو في النزع، فقال: روى عبد الحميد بن جعفر، عن صالح بن أبي عريب، عن كثير بن مرَّة، عن معاذ عن النبي ﷺ: «**من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله دخلَ الجنة**».

فصار البيت ضجَّة ببكاءِ مَن حَضَر.

خبر أبي حاتم الرازي (ت ٢٧٧)

قال ابنه عبد الرحمن في «**تقدمة الجرح والتعديل**»[١]: «حضرتُ أبي رَحِمَهُ اللَّهُ وكان في النزع وأنا لا أعلم، فسألته عن عُقبة بن عبد الغافر، يروي عن النبي ﷺ، له صحبة؟ فقال برأسه: لا، فلم أقنع منه، فقلتُ: فهمتَ عني؟ له صحبة؟ قال: هو تابعي.

قلت (ابن أبي حاتم): فكان سيد عمله معرفة الحديث، وناقِلَة الأخبار، فكان في عمره يُقتبَس منه ذلك، فأراد الله أن يُظهر عند وفاته ما كان عليه في حياته» اهـ.

---

(١) (ص ٣٦٧).

خبر ابن جرير الطبري (ت ٣١٠)

قال المعافى النَّهْرَواني في «**الجليس الصالح**»[1]: «وحكى لي بعض بني الفرات، عن رجلٍ منهم أو من غيرهم: أنه كان بحضرة أبي جعفر الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قبل موته، وتوفي بعد ساعة أو أقلّ منها، فذُكِرَ له هذا الدعاء[2]، عن جعفر بن محمد عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ فاستدعى محبرةً وصحيفةً فكتبها، فقيل له: أفي هذه الحال؟! فقال: ينبغي للإنسان أن لا يدع اقتباسَ العلمِ حتى يموت» اهـ.

خبر ابن سعدون (ت ٣٥٢)

ذكر القاضي عِياض في «**ترتيب المدارك**»[3] في ترجمة أبي بكر محمد بن وسيم بن سعدون الطُّليطلي: أنه كان رأسًا في كلِّ فن، مُتقدِّمًا فيه... قال: «**ودَخَل عليه ـ وهو في النزع ـ بعضُ أصحابه، فناداه، فلم يُجِبْه، فقال الآخر: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾** [سبأ: ٥٤]. **فقال له أبو بكر حين ذلك: نزلت في الكفار، وفيها: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾**»[4].

---

(١) (٣/ ٢٢٢).

(٢) وهو قوله: «يا سابق الفوت، ويا سامع الصوت، ويا كاسي العظام لحمًا بعد الموت...» ثم يدعو بمسألته.

(٣) (٦/ ١٧٦).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير»: (٣/ ٥٥٢ ـ ٥٥٤).

خبر مسرَّة الحضرمي (ت ٣٧٣)

وذكر عياضٌ في «المدارك»[١] ـ أيضًا ـ في ترجمة مسرَّة بن مسلم الحَضْرمي ـ وكان من أهل العلم والزهد التام ـ أنه لما احْتُضِرَ ابتدأ القرآن، فانتهى في (سورة طه) إلى قوله تعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤]، ففاضت نفسه.

خبر البَيْرُوني[٢] الفَلَكِي (ت ٤٤٠)

ذكر ياقوت في «إرشاد الأريب»[٣] في ترجمة أبي الريحان محمد بن أحمد الخُوَارَزْمي ما كان عليه من حرصٍ في تحصيل العلوم، وتصنيف الكتب، ثم ذكر له الفقيه الوَلْوَالجيّ قال: دخلتُ على أبي الرّيحان وهو يجود بنفسه، وقد حَشْرج نَفَسُه، وضاقَ به صدرُه، فقال لي في تلك الحالة: كيف قلت لي يومًا حساب الجدَّات الفاسِدَة[٤]؟ فقلت له ـ إشفاقًا عليه ـ: أفي هذه الحالةِ؟! قال لي: يا هذا! أُوَدِّعُ الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة ألا يكون خيرًا

(١) (٦/ ٢٧١).

(٢) قال ياقوت: (١٧/ ١٨٠): «هذه النسبة معناها: البرَّاني، لأن بيرُن بالفارسية معناه برًّا...» اهـ.

(٣) (١٧/ ١٨٢).

(٤) يعني: الجدَّات من قِبَل الأم.

مـن أن أُخلِّيهـا وأنـا جاهـلٌ بها؟ فأعـدتُ ذلـك عليـه وحَفِظَ... وخرجتُ من عِنْده، وأنا في الطريق، فسمعتُ الصُّرَاخ» اهـ.

خبر ابن رُوزْبَه (ت ٦٣٣)

وفي ترجمة المُسْنِد أحمد بن عبد الله بن معطي الجزائري (ت ٦٦٦) فـي «**ذيـل التقييـد**»[1] للفاسـي أنه سَـمعَ «**صحيح البخـاري**» عَلَـى عليٍّ بن أبـي بكر بـن رُوزْبَه في أربعة عشـر مجلسًـا، وأنه قـال لهم يـوم الخَتْـم: اجتهدوا فـي إكمال هذا الكتاب، فإنه ـ والله ـ ما بقي غيركم يسـمعه عليَّ، وتوفي في الليلة المتصلةِ بذلك اليوم.

خبر ابن مالك صاحب الألفية (ت ٦٧٢)

وفي كتاب «**الفَلَاكـة والمفلوكـون**»[2] للدَّلَـجي في ترجمة الإمام أبـي عبد الله جمـال الديـن محمد بـن عبد الله بن مالك النحوي العلامة، قال: «**كان كثير الإشْـغَال[3] والاشـتغال، حتى أنه حفظ في اليوم الذي مات فيه خمسة شواهد!**».

---

(١) (٢/ ٦٨).

(٢) (ص ٦٩).

(٣) أي: التدريس.

خبر الصفيّ الهندي (ت ٧١٥)

ذكر الذهبي في «معجم شيوخه»[١] في ترجمته أنه روى له حديثين قال: «**ليسا هما عندي، قرأتهما عليه ونَفَسُه يُحشرج في الصدر، فتوفي يومئذٍ عفا الله عنا وعنه آمين**» اهـ.

خبر الحجَّار (ت ٧٣٠)

وهذا المعمّر الأعجوبة، شهاب الدين أبو العبَّاس أحمد بن أبي طالب الحجَّار، مُسْند الدنيا[٢]، فقد ذكر الفاسيُّ أن الطلاب قد قرأوا عليه في يومِ موته، وله مئة سنة وعشر سنين تقريبًا!

أقول: فاتعظ بهذه الهِمم العَلِيَّة، وابْكِ على تقصيرك ودُنُوِّ هِمَّتك، واستدرك ما فَرَط من أمرك بالجدِّ والعمل، ومداومة الدرس والنظر، فمن سار على الدرب وصل، وعند الصباح يَحْمَد القومُ السُّرَى.

قلت: وقريب من هذا ما جاء في سِيَر بعض العلماء، فهم مع شدة تطلُّبهم للعلم من بادِئ أمرهم حتى أوفوا فيه إلى الغاية، فاستكثروا ما شاؤوا، ومع تقدُّم أعمارِهم ودنوِّ آجالهم هم مع

---

(١) (٢/٢١٦).

(٢) هكذا حلاَّه الحافظ تقيُّ الدين الفاسي في «ذيل التقييد»: (٢/٥٨ ـ ٦١) والخبر فيه.

ذلك = يَـجِدون من الرغبة في العلم، والشغف به، أكثر مما يجده الشَّاب اليافِع المُمْتلئ قُوَّةً ونشاطًا!! فمما أُدوّنه في هذا الباب:

خبر ابن عقيل الحنبلي (ت ٥١٣)

فـي ترجمة أبي الوفاء ابـن عقيل الحنبلـي[١] رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: **«إني لأجد من حِرْصي على العلم، وأنا في عَشْرِ الثمانين[٢] أشدّ مما كنت أجده وأنا ابنُ عشرين سنة»**.

خبر ابن الجوزي (ت ٥٩٧)

وهذا العلامة المتفنِّـن، صاحب التصانيـف، أبو الفرج ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ يقرأ في آخر عمره وهو فـي (الثمانين) القراءات العشر على ابن الباقلاني المقرئ، مع ابنه يوسف[٣].

قال الذهبي ـ معلِّقًا ـ: **«فانظر إلى هذه الهمة العالية!»** اهـ.

---

(١) في «الذيل على طبقـات الحنابلـة»: (١/ ١٤٦). وفي ترجمة هـذا الإمام أمثلة عجيبة على علوّ همته وسعة علومه ومعارفه، وسيأتي طرف منها في ثنايا هذا الكتاب.

(٢) أي: العشر التي فيها الثمانين (من ٧١ إلى ٧٩).

(٣) «السير»: (٢١/ ٣٧٧). وابن الباقلاني هو: عبد الله بـن منصور بن عمران أبو بكـر الرَّبَعـي الواسـطي المقـرئ (ت ٥٩٣)، انظـر «معرفـة القـراء»: (٢/ ٨٧٠ رقم ٨٢٧).

خبر مرتضى الزَّبيدي (ت١٢٠٥)

قال العلامة عبد الحي الكَتَّاني في «فهرس الفهارس والأثبات»(١) في ترجمة العلامة اللغوي المحدِّث محمد مرتضَى الزَّبيدي: «ومع كثرة شيوخ المترجَم كثرةً مَهُوْلَةً بالنسبة إلى مشايخه ومُعاصِريه = كان غير مُكْتَفٍ بما عنده، بل دائم التطلّب والأخذ، ومكاتبة من بالآفاق، حتى إني رأيتُ بخطِّه في كناشة ابن عبد السلام الناصري استدعاءً كتبَه لمن يلقاه ابنُ عبد السلام المذكور (وذكر نصَّه، وفيه: استجازة كل من يلقاه من الشيوخ والعلماء بتاريخ ١١٩٧).

قال (الكتاني): وإن تعجب فاعجب لهذه الهمة، والحِرص من هذا الحافظ العظيم الشأن، وعدم شَبَعه، وكثرة نَهَمِه، فإنه عاش بعدما كتب هذا الاستدعاء نحو الثمان سنوات.

وهذا نظيرُ ما وجدته من كَتْب اسم الحافظ ابن الأبّار (ت٦٥٨) في استدعاءٍ مؤرَّخ بقريب من سنةِ وفاته! ومنهومان لا يشبعان: طالب علمٍ وطالب دنيا».

انتهى كلام الكتاني.

---

(١) (١/٥٣٦ ـ ٥٣٧).

أقول: ولئن عدَّ الذهبيُّ والكتانيُّ ما وقع لهؤلاء العلماء من النهمة الشديدة، والحرص العظيم، والهِمَّة العالية = فَلَعَمْري إن طلب العلم، والحرص عليه، والمذاكرة به في ساعة الاحتضار ووقتِ النزْعِ لأعظم دلالةً من ذلك وأوضح.

فلله تلك الهمم والعزائم!!

الفصل الثالث

حِرْص العلماء وشغفهم بالكتب، قراءةً وتحصيلًا

لقد أبْدَأ العلماءُ وأعادوا في بيـان قيمة كتب العلم، وعظيـم أثرهـا، وجلالـة موقعهـا، ولهـم فـي ذلك عبارات مشـهورة نثـرًا وشـعرًا، نجد كثيـرًا منها فـي مقدمة كتـاب «**الحيـوان**»(١) للجاحظ، وفـي ثنايا كتبه، وفـي «**تقييد العلم**»، و«**الجامع لأخـلاق الراوي**» للخطيب، و«**جامع بيان العلـم وفضلـه**» لابـن عبد البـر، وفي مطـاوي كتـب «**أدب الطلب**» وكتب «**التراجم والسير**» ومقدِّمات المصنفات التي تتحدث عـن (خزائـن الكتـب)(٢). فلا نُعيـد ما قالـوه، فهو مبتذلٌ في مظانِّه، إلا أني لم أشأْ إخلاء هذا الكتاب من لُمَعٍ منه (وهـو مَظِنَّـة ذلك)، فاخترتُ بضـع كلمـاتٍ أُراها من أحسنِ ما قيل:

---

(١) وقد أُفْرِدت هذه المقدمـة عن الكتاب من قديم، منها نسـخة قديمة بخط ابن البـواب (٤١٣)، وأخرى بخـط الصفدي (٧٦٤) وعُنْـوِن لها بعناوين مختلفـة، وأُفْرِدت حديثًا وطُبِعَت. وقيل: بل هي رسـالة مسـتقلة لزيادات واختلافات بين النصين.

(٢) مثل كتاب فيليب دي طرّازي، وكوركيس عوّاد، وغيرها.

قال الجاحظ (ت ٢٥٥) في كتاب «الحيوان»[١]: «من لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب ألذّ عنده من إنفاق عُشَّاق القِيان، والمُسْتهترين[٢] بالبنيان، لم يبلغ في العلم مبلغًا رضيًّا، وليس ينتفع بإنفاقه حتى يُؤْثر اتخاذ الكتب إيثار الأعرابيِّ فرسَه باللبن على عِياله، وحتى يُؤمِّل في العلم ما يؤمِّل الأعرابيُّ في فرسِه».

وذكر الإمام أبو محمد بن حزم (ت ٤٥٦) في «رسالة مراتب العلوم»[٣] دَعَائِمَ العلم، فعدَّ منها «الاستكثار من الكتب، فلن يخلوَ كتابٌ من فائدة[٤] وزيادة علمٍ يجدُها فيه إذا احتاجَ إليه، ولا سبيل إلى حفظ المرء لجميع علمِه الذي يختصّ به، فإذ لا سبيل إلى ذلك، فالكتب نِعْم الخِزانة له إذا طُلِب.

---

(١) (١/ ٥٥).

(٢) المُسْتَهْتِر: المولَع بالشيء المنهمك فيه.

(٣) ضمن «رسائل ابن حزم»: (٤/ ٧٧).

(٤) وهذه القاعدة (لن يخلو كتابٌ من فائدة) ذكرها ابن الجوزي ـ أيضًا ـ في «صيد الخاطر» (ص ٤١١) وهو يُرشد الطالب قال: «وليجتهد في مجالسة العلماء... وتحصيل الكتب، فلا يخلو كتابٌ من فائدة» اهـ. وانظر فلسفة عباس العقَّاد لهذه القاعدة في كتابه «أنا» (ص ٨٩) وهو ترجمته لنفسه، جُمِع بعد موته. وذكرها وفصل القول فيها الأستاذ محمود الطناحي في «الموجز» (ص ٢٤ ـ ٣٥) وهو مهم.

ولولا الكتب لضاعت العلوم ولم توجَد، وهذا خطأٌ ممن ذمَّ الإكثار منها، ولو أُخِذَ برأيه، لتَلِفَت العلوم، ولجاذبهم الجهَّال فيها، وادَّعوا ما شاؤوا! فلولا شهادة الكتب لاستوت دعوى العالم والجاهل» اهـ.

وعُذِلَ بعضُ العلماء في كثرة شراء الكتب، فقال[1]:

وقائلةٍ أنفقتَ في الكُتْبِ ما حَوَت
يمينُك من مالٍ فقلتُ: دعيني[2]
لعلِّي أرى فيها كتابًا يَدُلُّني
لأخْذِ كتابي آمِنًا بيميني

وفي كلِّ ما سيأتي من الأخبار والقصص لسانٌ ناطق، وبيانٌ مُشرق، لقيمة الكتب ومكانتها في نفوس هؤلاءِ العلماء، وهي بذلك غنيَّة عن أيِّ تعليق.

---

(١) هو سلمان بن عبد الحميد ابن الحموي الحنبلي (ت ٨٠٥) من شيوخ الحافظ ابن حجر، ذكره في «المجمع»: (١/ ٦٠١)، وانظر «السحب الوابلة»: (٢/ ٤٠٦)، و«الجوهر المنضد» رقم ٥٣.

(٢) وقع في «الجوهر»، وحاشية السحب: «وعيني»! وهو تحريف.

ولع ابن دُرَيْد (ت ٣٢١) بالعلم والكتب

قال أبو نصر الميكالي[١]: تذاكرنا المنتزهات يومًا وابن دُرَيْد حاضر، فقال بعضُهم: أنزه الأماكن غُوطة دمشق. وقال آخرون: بل نهر الأُبلَّة. وقال آخرون: بل سُغْد سمرقند. وقال بعضُهم: نهروان بغداد. وقال بعضُهم: شِعب بوَّان. وقال بعضُهم: نوبهار بلخ.

فقال (أي ابن دريد): هذه منتزهات العيون فأين أنتم عن متنزهات القلوب؟ قلنا: وما هي يا أبا بكر؟ قال: «**عيون الأخبار**» للقُتَبي، و«**الزهرة**» لابن داود، و«**قلق المشتاق**» لابن أبي طاهر.

ثم أنشأ يقول:

ومَن تكُ نزهتَهُ قينةٌ وكأسٌ تحثُّ وكأس تُصَبّ
فنزهتُنا واستراحَتُنا تلاقي العيون ودَرْس الكتبْ

(١) «إرشاد الأريب»: (١٨/ ١٣٩) لياقوت.

ولع شيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨) بالمطالعة، وشغفه بالبحث

قال الحافظ ابن عبد الهادي (ت ٧٤٤) ـ تلميذه ـ في «**مختصر طبقات علماء الحديث**»[(١)] ـ وذكر طرفًا من صفاته ـ: «لا تكاد نفسُه تشبع من العلم، ولا تروى من المطالعة، ولا تملُّ من الاشتغال، ولا تكلُّ من البحث، وقَلَّ أن يدخل في علمٍ من العلوم في بابٍ من أبوابه إلا ويُفتح له من ذلك الباب أبواب، ويستدرك أشياء في ذلك العلم على حُذَّاق أهله».

وقال الشيخ محمد خليل الهراس[(٢)]: «كان لابن تيمية بَصَر نافذ ونفس طُلَعَة لا تكاد تشبع من العلم، ولا تكل من البحث، ولا تروى من المطالعة، مع التوفر على ذلك وقطع النفس له وصرف الهمة نحوه، حتى إنه لم ينقطع عن البحث والتأليف طيلة حياته في الشام أو في مصر، في السجن أو في البيت، بل إنه كان يتوجَّع ألمًا وحسرة حينما أخرجوا الكتب والأوراق من عنده في أُخْرَيات أيامه...» اهـ.

---

(١) (٤/ ٢٨٢)، وانظر «العقود الدريَّة» (ص٧ ـ بتحقيقي) له، فقد نقل فيه هذا القول وأتمّ منه عن بعض قدماء أصحاب الشيخ.

(٢) «ابن تيمية السلفي» (ص٢٧). وانظر «الجامع لسيرة شيخ الإسلام ـ الفهارس» (ص ٧٥١، ٧٦٠).

قراءة شيخ الإسلام وهو مريض

قال الإمام ابن القيم في «روضة المحبِّين»[١]: وحدَّثني شيخنا ـ يعني ابنَ تيمية ـ قال: ابتدأني مرضٌ، فقال لي الطبيب: إن مُطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض، فقلت له: لا أصبر على ذلك، وأنا أحاكمك إلى علمك، أليست النفس إذا فرحت وسُرَّت قَوِيت الطبيعةُ فدفعت المرضَ؟ فقال: بلى، فقلت له: فإن نفسي تُسرُّ بالعلم فتقوى به الطبيعةُ فأجدُ راحةً، فقال: هذا خارجٌ عن علاجنا...» اهـ.

وقال ابنُ القيم أيضًا: «وأعرف من أصابه مرض من صداعٍ وحُمَّى وكان الكتاب عند رأسه، فإذا وجد إفاقةً قرأ فيه، فإذا غُلِبَ وضعَه، فدخل عليه الطبيبُ يومًا وهو كذلك فقال: إن هذا لا يحلُّ لك فإنك تُعين على نفسك وتكون سببًا لِفَوْت مطلوبك» اهـ.

قراءة ابن الجوزي (ت٥٩٧) (٢٠ ألف) مجلد وهو بَعْدُ في الطلب

قال ابن الجوزي عن نفسِه في «صيد الخاطر»[٢]: ـ أثناء حديثه عن المطالعة والإكثار منها ـ: «وإني أُخبر عن حالي: ما أشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتابًا لم أره، فكأني

(١) (ص٧٠).

(٢) (ص٥٥٧).

وقعتُ على كنز. ولقد نظرتُ في ثَبَتِ الكتب الموقوفة في المدرسة النِّظَامية، فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلَّد، وفي ثبت كتب أبي حنيفة، وكتب الحُمَيدي، وكتب شيخنا عبد الوهاب بن ناصر، وكتب أبي محمد بن الخشَّاب ـ وكانت أحمالًا ـ وغير ذلك من كلِّ كتاب أقدر عليه.

ولو قلت: إني طالعتُ عشرين ألف مجلد كان أكثر، وأنا بعدُ في الطَّلب» اهـ.

ثمَّ ذَكَر ما استفاده من المطالعة.

وها هو ابنُ الجوزي ـ أيضًا ـ يوصي العالمَ وطالبَ العلم بقوله[1]: «ليكن لك مكان في بيتك تخلو فيه، وتُحادِث سطور كتبك، وتجري في حلبات فكرك» اهـ.

حِرْص ابن عقيل (ت ٥١٣) على الوقت وشغله بالمطالعة والعلم

ذكر ابن رجب الحنبلي في «الذيل على طبقات الحنابلة»[2] في ترجمة ابنِ عقيل الحنبلي، عن ابنِ الجوزي أنه قال عنه: «كان دائم التشاغُل بالعلم، حتى إني رأيتُ بخَطِّه: إني لا يحلّ

(١) «صيد الخاطر» (ص٣١٨).

(٢) (١/ ١٤٥ ـ ١٤٦).

لـي أن أُضيـع سـاعةً مـن عمـري، حتـى إذا تعطَّل لسـاني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عـن مُطالعة، أعملتُ فِكري في حال راحتي وأنا مُسْتَطرِحٌ، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسـطره. وإني لأجد من حِرصي على العلم وأنا في عَشْر الثمانين أشـدّ مما كنت أجده وأنا ابن عشرين سنة» اهـ.

ونقلَ ابنُ رجب من «الفنون» لابن عقيل أنه قال عن نفسِه: «أنا أقصِّر بغاية جهدي أوقات أكلي، حتى أختار سـفَّ الكعك وتحسِّيه بالماء على الخبز، لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ، توفّرًا على مطالعةٍ، أو تسطير فائدة لم أدركها فيه» اهـ.

إذا لم أشتغل بالعلم، ماذا أصنع؟!

ذكـر الإمـام المقريـزيّ فـي «**المقفَّـى الكبيـر**»[1] العلامـةَ ابنَ صدقة الحمـوي (ت ٥٩٩) أنـه كان كثيرَ الاشـتغال بالعلم دائم التحصيل له.

وذكر عن الحافظ المنذري أنه قال: «دخلتُ عليه يومًا وهو في سَرَبٍ تحت الأرض، لأجل شدَّة الحر، وهو يشتغل. فقلتُ له: في هذا المكان؟ وعلى هذه الحال؟!

(١) (٧/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤).

فقال: إذا لم أشتغل بالعلم ماذا أصنع؟

قال المنذري: «إنه وُجِدَ في تَرِكَته محابر ثلاث، أحدها تَسَعُ عَشَرة أرطال، والأخرى تسعة، والثالثة ثمانية».

قال المنذري: «إنه كان يأخذ الكتاب بالثمن اليسير ولا يزال يخدمه حتَّى يصير من الأمَّهات»[١].

كُتبه أحبّ إليه من وزنها ذهبًا

وفي ترجمة الحافظ أبي طاهر بن أبي الصَّقر (ت ٤٧٦) في «**المنتظم**»[٢] لابن الجوزي أنه قال عنه: «كان من الجوَّالين في الآفاق، والمكثرين من شيوخ الأمصار، وكان يقول: هذه كتبي أحب إليّ من وزنها ذهبًا» اهـ.

وقد أُصِيْبَ ببعضها كما ذكر الذهبي في «**تاريخ الإسلام**»[٣]، أعظمَ اللهُ أجرَه في مصيبته بها.

---

(١) **قلتُ**: ومثله شيخُ علماء دمياط عبد الرحمن الخضري، فقد أنفق سنتين في إصلاح نسخته الخطية من «البرهان» لإمام الحرمين وترتيب أوراقها ومعرفة موضع الخلل فيها وكتابة نسخة منها، انظر مقدمة «البرهان» (ص ٨٢)، و«الدرة المضيَّة» (ص ١٧).

(٢) (٩/٩).

(٣) وفيات (٤٧٦)، (ص ١٧٦).

كان أُعجوبة في حفظ الوقت والتوفُّر على المطالعة

قال الحافظ السخاوي في «الضوء اللامع»[١] في ترجمة أحمد بن سليمان بن نَصْر الله البُلْقاسي ثم القاهري الشافعي المتوفى سنة (٨٥٢) في ريعان شبابه[٢]: «وكان إمامًا علاَّمة قوي الحافظةِ حسنَ الفاهمة، مُشاركًا في فنونٍ، طلْقَ اللسان، محبًّا في العلم والمذاكرة والمباحثة، غير مُنفكٍّ عن التحصيل، بحيث إنه كان يُطالع في مشيه، ويُقرئ القراءات في حال أكله خوفًا من ضياع وقته في غيره، أُعجوبة في هذا المعنى، لا أعلمُ في وقته من يُوازيه فيه، طارحًا للتكلُّف، كثير التواضع مع الفقراء، سهمًا[٣] على غيرهم، سريع القراءة جدًّا» اهـ.

أكثر من خمسين سنة إمَّا يُطالع أو يكتب

قال السخاوي في «**الضوء اللامع**»[٤] في ترجمة محمد بن أحمد بن محمد العُمَري الصَّغَاني (ت ٨٥٤): «**كان إمامًا علَّامةً**

---

(١) (١/ ٣١١)، و«القبس الحاوي»: (١/ ١٥٣) للشمَّاع، و«نظم العِقيان»: (ص ٤٢ ـ ٤٣) للسيوطي.

(٢) ولد سنة (٨٢٤)، وتوفي سنة (٨٥٢) وعمره (٢٨) سنة، وهو مما فاتني ذِكره في كتابي «العلماء الذين لم يتجاوزوا سِن الأشُدِّ»، وسأذكره مع غيره في طبعةٍ لاحقة إن شاء الله تعالى.

(٣) في «القبس الحاوي»: «شهمًا» بالمعجمة.

(٤) (٧/ ٨٤ ـ ٨٥)، و«الذيل التام»: (٢/ ٩٨) له أيضًا.

متقدمًا في الفقه والأصْلَين والعربية مشاركًا في فنونٍ، حسن التقييد، عظيم الرغبة في المطالعة والانتقاء، بحيث بلغني عن أبي الخير بن عبد القوي أنه قال: أعرفه أزْيَد من خمسين سنة، وما دخلتُ إليه قطُّ إلا ووجدته يُطالع أو يكتب» اهـ.

كان لا ينفكّ من القراءة حتى وهو في الحمام

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «روضة المحبين»[1] ـ وهو يتكلم عن عِشْق العلم ـ: «وحدثني أخو شيخنا (يعني أحمد ابن تيمية) عبد الرحمن ابن تيمية، عن أبيه (عبد الحليم) قال: كان الجَدُّ (أبو البركات) إذا دخل الخلاء يقول لي: اقرأْ في هذا الكتاب وارْفَعْ صوتك حتى أسمع» اهـ.

أقول: وهذا سندٌ كالشمس، رحم الله الجميع.

كان لا يَمَلُّ من المطالعة مع مزيد السَّهَر

قال السخاوي في «الضوء اللامع»[2] في ترجمة أحمد بن علي بن إبراهيم الهيتي الشافعي (ت ٨٥٣): «برع في الفقه وكثُرَ استحضارُه له، بل وللكثير من «شرح مسلم» للنووي، لإدمان

---

(١) (ص ٧٠).

(٢) (٦/٢).

نظره فيه... وكان لا يملّ من المطالعة والاشتغال، مع الخير والدين والتواضع، والجِدّ المَحْض، والتقلُّل الزائد، والاقتدار على مَزِيْد السَّهر» اهـ.

كان لا يُسافر إلا وأحمال الكتب معه يقرأ وينظر

قال السخاوي في «الضوء اللامع»[1] في ترجمته الإمام اللغوي محمد بن يعقوب الفيروزابادي (ت ٨١٧) إنه اقتنى كتبًا نفيسَة (حتى سمعَه بعضهم يقول): «اشتريتُ بخمسين ألف مثقالٍ ذهبًا كتبًا، وكان لا يُسافر إلا وصحبته منها عدة أحمال، ويُخرج أكثَرَها في كل منزلةٍ فينظر فيها ثم يعيدها إذا ارتحل» اهـ.

ومثله السيد صلاح بن أحمد المؤيّدي اليماني (ت ١٠٤٨)، قال عنه الشوكاني في «البدر الطالع»[2]: «كان من عجائب الدهر وغرائبه؛ فإن مجموع عمره تسع وعشرون سنة، وقد فاز من كل فنٍّ بنصيبٍ وافر...

---

(١) (١٠/ ٨١).

(٢) (١/ ٢٩٣ ـ ٢٩٥). وذكر الشوكاني أنّ له قصائد طنَّانة يعجز أهلُ الأعمار الطويلة عن اللحاق به فيها، وأن له «ديوان شعر» كله غُرَر ودُرَر.

وصنَّف في هـذا العمر القصير التصانيـف المفيدة والفوائد الفريـدة العديدة ـ وذكر عـددًا منها ثـم قال ـ: وإذا سـافر أول ما تُضْرَب خيمةُ الكتب، وإذا ضُرِبت دخلَ إليها، ونَشَرَ الكتبَ، والخدمُ يصلحون الخِيَم الأُخرى، ولا يزال ليله جميعه ينظر في العلم، ويُحرر ويُقرِّر مع سلامة ذوقه...» اهـ.

لا يوجد إلّا وعنده كتابٌ ينظر فيه، وقلمٌ يُصْلح به

قال الجَنَدِي السكسكي في «السـلوك في طبقات العلماء والملـوك»[1] فـي ترجمـة أبـي الخير بـن منصـور الشـماخي السـعدي (ت ٦٨٠) ـ بعد ثنائه عليه ـ: «ولم يكن له في آخر عمره نظير بجودة العلم، وضبط الكتب، بحيثُ لا يوجد لكتبه نظير في الضبط.

أخبرني جماعةٌ ممن أدركه أنه كان لا يوجد إلا وعنده كتابٌ ينظر فيه، ومحبرة وأقلام يصلح بهما ما وجَدَ في الكتاب...

(مات سنة ٦٨٠)، بعدَ أن جَمَعت خزانتُه من الكتب ما لم تجمعه خزانة غيره ممن هو نظير له...» اهـ.

---

(١) (٢/ ٣٠).

باب

في ملازمة الكتب حضرًا وسفرًا وحملها على ظهورهم في رحلاتهم

وفي هذا الباب عجائب وغرائب، فرحم الله تلك الأجساد، وأنزلها منازل الرِّضوان، كِفاء ما عملوا، وجزاء ما صبروا.

ذكر الذهبي في «**تذكرة الحفّاظ**»(١) عن ابن طاهر المقدسي أنه قال: بُلْتُ الدمَ في طلب الحديث مرتين، مرَّةً ببغداد، ومرة بمكة. كنتُ أمشي حافيًا في الحرِّ فلحقني ذلك، وما ركبتُ دابَّة قط في طلب الحديث، وكنت أحمل كتبي على ظهري، وما سألتُ في حال الطلبِ أحدًا، كنتُ أعِيشُ على ما يأتي» اهـ.

وذكر الذهبي ـ أيضًا ـ في «**التذكرة**»(٢) عن الدغولي أنه قال: «**أربعُ مجلَّداتٍ لا تُفارقني سفرًا وحضرًا: كتاب المُزَني، وكتاب العَيْن، والتاريخ للبخاري، وكليلة ودِمْنة**»(٣).

---

(١) (٤/ ١٢٤٣).

(٢) (٣/ ٨٢٤).

(٣) كتاب المزني: هو مختصره المشهور في فقه الشافعي.
كتاب العين: للخليل بن أحمد الفراهيدي في اللغة، أول كتابٍ معجمي.
كتاب التاريخ: للإمام البخاري، وله ثلاثة تواريخ، ولعل المقصود هنا: =

وفي ترجمة الإمام الحافظ الحسن بن أحمد الهَمَذاني في **«الذيل على طبقات الحنابلة»**(١) عن تلميذه الحافظ عبد القادر الرُّهـاوي أنه قال عنه: **«وكان عفيفًا من حـبِّ المال، مهينًا له، باع جميعَ ما ورثه ـ وكان من أبناء التُّجـار ـ فأنفقَه في طلب العلمِ، حتى سافر إلى بغداد وأصبهان مرَّات ماشيًا يحمل كتبه على ظهره»** اهـ.

ولما استقرَّ في بلـده ـ بعد عودتـه من رحلته ـ عمـلَ دارًا للكتب وخزانةً وقفَ جميعَ كتبه فيها، وكان قد حصَّل الأصولَ الكثيرة، والكتبَ الكِبار الحِسَان بالخطوط المعتبرة.

وفـي **«المرقبَـة العُلْيا»**(٢) لأبي الحسـن المالقـي في ترجمة القاضي أحمد بن يزيد الأمـوي مِن وَلَد بَقِيّ بن مخلد القرطبي (ت ٦٢٥): أنه ألَّف كتابًا في الآيات المتشـابهات، قيل: إنه من أحسن شيءٍ في بابه، وكان لا يُفارقه في سَفَر ولا في حَضَر.

= الكبير، وشُـهْرته أظهر من أن تُذكَر، قال السخاوي في «الإعلان بالتوبيخ» (ص٧٩): «لـو لـم يكن مـن شـرف هـذا الفـن ـ أي التاريـخ ـ إلا كتابة البخاري لـ«تاريخه» في الليالي المُقْمرة في الروضة ـ الشـريفة ـ وصلاته ركعتين لكل ترجمةٍ: لَكَفى» اهـ.

وكليلة ودِمْنة: لابن المقفَّع، في الأدب والحكايات.

(١) (١/٣٢٦).

(٢) «المرقَبَةُ العُلْيا فيمن يستحق القضاء والفُتْيا» (ص١١٧ ـ ١١٨).

وذكر الحافظ الذهبي في «**سِيَر أعلام النُّبلاء**»[(١)] في ترجمة القاضي الرَّامَهُرْمُزي لمَّا ذكر كتابه: «المحدِّث الفاصل» قال: «في علوم الحديث، وما أحسنه من كتاب! قيل: إنَّ السِّلَفِي كان لا يكادُ يُفارق كُمَّه ـ يعني في بعضِ عمره ـ»[(٢)] اهـ.

وفي «**سِيَر النبلاءِ**»[(٣)] ـ أيضًا ـ: «قال الحافظ يحيى بن عبد الوهاب (ابن منده): كنتُ مع عمي عبيدالله في طريق نَيْسابور، فلما بلغنا بِئر مَجَنَّة، قال عمِّي: كنت هاهنا مرَّةً، فعرضَ لي شيخ جمَّال، فقال: كنتُ قافلًا من خراسان مع أبي، فلمَّا وصلنا إلى هاهنا، إذا نحن بأربعين وِقْرًا من الأحمال، فظننا أنها منسوج الثياب، وإذا خيمة صغيرة فيها شيخ، فإذا هو والدك، فسأله بعضُنا عن تلك الأحمال؟ فقال: هذا متاعٌ قلَّ من يرغبُ فيه في هذا الزمان، هذا حديث رسول الله ﷺ» اهـ.

وفي «**طبقات الحنابلة**»[(٤)] لابن أبي يَعْلى، و«**تذكرة الحفاظ**»[(٥)] للذهبي في ترجمة إسحاق بن منصور الكَوْسَج (ت ٢٥١): «عن

---

(١) (١٦/ ٧٣).
(٢) وأثنى على الكتاب الذهبيُّ بعدُ فقال: وكتابُه المذكور يُنبئ عن إمامته.
(٣) (١٧/ ٣٧).
(٤) (١/ ١١٤).
(٥) (٢/ ٥٢٤).

حسان بن محمد قال: سمعتُ مشايخَنا يذكرون: أن إسحاق بن منصور بلغه أن أحمد بن حنبل رجع عن تلك المسائل التي علَّقها عنه. **قال**: فجمعَ إسحاق بن منصور تلك المسائل في جِرابٍ، وحملها على ظهره، وخرج راجلًا إلى بغداد وهي على ظهره. وعرض خُطوطَ أحمد عليه في كلِّ مسألةٍ استفتاه فيها، فأقرَّ له بها ثانيًا. وأُعْجِب أحمدُ بذلك من شأنه» اهـ.

وذكر ياقوت في «**معجم الأدباء**»(١)، والقِفطي في «**إنباه الرواة**»(٢) وعنه ابن خلكان في «**الوفيات**»(٣) في ترجمة اللغوي ابن الخطيب التِّبْرِيْزي (ت ٥٠٢) أنه حصلت له نسخة لكتاب الأزهري (تهذيب اللغة) في عدة مجلدات لِطَاف، وأراد أخذها عن عالمٍ باللغة، فدُلَّ على أبي العلاء المعرِّي، فجعلها في مِخْلاةٍ، وحملها على كتفه من تِبْريز إلى المعرَّة ـ ولم يكن له ما يستأجر به مركوبًا ـ فنَفَذَ العرقُ من ظهره إليها.

وقيل: إنها ببعض الوقوف البغداذية وأن الجاهل بخبرها إذا رآها يظن أنها غريقة، وليس الذي بها إلا عَرَق يحيى بن علي رَحِمَهُ اللَّهُ.

---

(١) (٢٠/٢٦ ـ ٢٨).

(٢) (٤/٢٨ ـ ٢٩).

(٣) (٦/١٩٢)، وانظر «الفلاكة والمفلوكون» (ص ٧١).

باب

فيمَن استغنى بمجالسة كُتبه عن مخالطة الناس

ابن المبارك

ذكر الذهبي في «السير»(١): «عن نُعيم بن حماد قال: كان ابن المبارك يُكثر الجلوسَ في بيته، فقيل له: ألا تستوحِش؟ فقال: كيف أستوحِشُ وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه؟!» اهـ.

وأسند الخطيب في «تقييد العلم»(٢) عن ابن المبارك قوله: من أحبَّ أن يستفيد، فلينظر في كتبه.

الذُّهْلي

وفي «تاريخ بغداد»(٣): «أن يحيى بن (محمد بن يحيى) الذُّهْلي قال: دخلتُ على أبي في الصيف الصائف وقتَ القائلة،

(١) (٨/ ٣٨٢)، وهو بنحوه في «تقييد العلم» (ص١٢٦)، و«تاريخ بغداد»: (١٠/ ١٥٦)، و«الجليس الصالح»: (١/ ١٦٣ ـ ١٦٤).
(٢) (ص١٤٠).
(٣) (٣/ ٤١٩)، وانظر: «السير»: (١٢/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠).

وهو في بيت كتبه، وبين يديه السِّراج، وهو يُصنِّف، فقلتُ: يا أبةِ! هذا وقتُ الصلاة، ودُخانُ هذا السِّراج بالنهار، فلو نفَّسْت عن نفسك. قال: يا بُنيَّ تقولُ لي هذا وأنا مع رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين»؟!

ابن الأعرابي

ساق ابن عبد البر بسنده في «**جامع بيان العلم وفضله**»(١) أن أحمد بن محمد بن شجاع بعثَ غلامًا من غِلْمانه إلى أبي عبد الله ابن الأعرابي ـ صاحب الغريب ـ يسأله المجيءَ إليه، فعاد إليه الغلام، فقال: قد سألته ذلك، فقال لي: عندي قوم من الأعراب، فإذا قضَيتُ أَرَبي منهم أتيتُ، قال الغلام: وما رأيتُ عنده أحدًا، إلا أن بين يديه كتبًا ينظر فيها، فينظر في هذا مرَّة وفي هذا مرة، ثم ما شعرنا حتى جاء، فقال له أبو أيوب: يا أبا عبد الله! سبحان الله العظيم، تخلَّفت عنَّا وحَرَمْتنا الأُنسَ بك، ولقد قال لي الغلامُ: إنه ما رأى عندك أحدًا، وقلتَ: أنا مع قومٍ من الأعراب، فإذا قضيتُ أَرَبي معهم أتيتُ، فقال ابنُ الأعرابي:

---

(١) (٢/١٢٢٧ ـ ١٢٢٨). والخطيب في «تقييد العلم» (ص ١٤٢ ـ ١٤٣) بنحوه.

لنـا جُلَسـاءٌ مـا نَـمَـلُّ حديثَهـم

أَلِـبَّـاءُ مأمونـون غَيْـبًـا ومَشْـهدا

يُفيدوننا مِن علمهم علمَ ما مضى

وعقـلًا وتـأديـبًـا ورأيًـا مُسَـدَّدا

بِلا فتنةٍ تـُخشـى ولا سـوء عِشْرةٍ

ولا نَتَّقـي منهـم لسـانًا ولا يـدا

فإن قلتَ: أمـواتٌ فلا أنتَ كاذِبٌ

وإن قلـتَ: أحيـاءٌ فلسـتَ مُفنَّـدا

وقيـل لرجلٍ: من يُؤنِسُـكَ؟ فضـربَ بيده إلى كتبـه، وقال: هذه، فقيل: مِن الناسِ؟ فقال: الذين فيها[1].

خليلـي كتابـي لا يَعـاف وصاليـا

وإن قـلَّ لي مـالٌ وولَّـى جماليا

كتابي عَشيقي حين لم يبقَ مَعْشَق

أُغازلـه لـو كان يـدري غزاليـا

كتابـي جليسـي لا أخـاف ملالـه

محـدّث صـدقٍ لا يخـاف ملاليا

---

(١) «تقييد العلم» (ص ١٢٥).

كتابـي بحـر لا يغيـض عطـاؤه
يُفيض عليَّ المـال إن غاض ماليا
كتابـي دليـلٌ لي علـى خيـر غايةٍ
فمـن ثَـمَّ إدلالـي ومنـه دلاليـا

قيل: إن هذه الأبيـات ـ وغيرها ـ كانت على باب خزانة الإمام أبي بكر القفَّال(١).

المعافى النهرواني

وقال الإمـام المعافَى بن زكريـا النهرواني الجَرِيْري ـ نِسْـبةً إلى مذهـب ابن جرير الطبـري ـ (ت ٣٩٠) في كتابـه: «**الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي**»(٢): «وقد كان بعض من كان لـه فـي الدنيا صِيْـتٌ ومكانـة عاتبني علـى ملازمـة المنزل، وإغبابـي زيارتَـه، وإقلالـي ما عوَّدتـه مـن الإلمـام بـه وغِشْـيان حضرته، فقال لي: أما تستوحش الوحْدَة؟ ونحو هذا من المقالة.

فقلتُ له: أنا في منزلي إذا خلوتُ من جليسٍ يقصد مجالستي، ويؤثر مساجلتي، في أحسن أُنسٍ وأجملِه، وأعلاه وأنبلِه، لأنني

(١) «تقييد العلم» (ص ١٢٧).
(٢) (١/ ١٦٤).

أنظر في آثار الملائكة والأنبياء، والأئمة والعلماء، وخواصّ الأعلام الحكماء، وإلى غيرهم من الخلفاء والوزراء، والملوك والعظماء، والفلاسفة والأدباء، والكُتَّاب والبلغاء، والرُّجَّاز والشعراء، وكأنني مُجَالِسٌ لهم، ومستأنسٌ بهم، وغير ناءٍ عن محاضرتهم، لوقوفي على أنبائهم، ونظري فيما انتهى إليَّ من حِكَمهم وآرائهم» اهـ.

ما تزوَّج، لم يشتغل إلا بالعبادة والمطالعة

قال الذهبي في «سير النبلاء»[1] في ترجمة عيسى بن أحمد اليونيني (ت ٦٥٤): «**لم يشتغل إلا بالعبادة والمطالعة، وما تزوج**[2]**، بل عَقَد على عجوزٍ تخدمه**» اهـ.

إما أن ينسخ، أو يُدَرِّس، أو يقرأ

وفي «**تبيين كذب المفتري**»[3] لابن عساكر أنه قال في

(١) (٢٣/ ٣٠٠).

(٢) لا يُفهم من هذا الدعوة إلى ترك الزواج، بل الأصل الترغيب فيه والحثّ عليه، وقد يُخرج عن هذا الأصل لعوارض مُدَوَّنة في أماكنها من كتب الفقه.

(٣) (ص ٢٦٣)، و«سير النبلاء»: (١٧/ ٦٤٦).

والفقيه سُلَيْم الرازي ممن طلب العِلْم على كِبَر السِّن، فقد طلبه بعد سنِّ الأربعين، كما ذكر ابن عساكر في كتابه السابق (ص ٢٦٢). =

ترجمة الفقيه سُلَيْم بن أيوب الرازي: «**حُدِّثتُ عنه أنه كان يحاسِب نفسَه على الأنفاس، لا يدع وقتًا يمضي عليه بغير فائدة، إما ينسخ أو يُدَرس أو يقرأ... ولقد حدثني عنه شيخُنا أبو الفرج الإسفراييني أنه نزل يومًا إلى داره ورجع، فقال: قد قرأتُ جزءًا في طريقي**».

وقال: إنه كان يُحرِّك شفتيه إلى أن يَقُطَّ القلم.

لا لذة له في غير جَمْع الكتب وتحصيلها

جاء في «**سِيَر النبلاء**»[1] في ترجمة المستنصر بالله أبي العاص الحكم بن عبد الرحمن الأُموي، صاحب الأندلس أنه «كان جَيِّد السيرة، وافر الفضيلة... ذا غرامٍ بالمطالعة وتحصيل

= ويُحفظ مثل هذا لعددٍ من العلماء، أذكر منهم: صالح بن كيسان، انظر: «تهذيب التهذيب»: (٤/ ٤٠٠)، والعز بن عبد السلام، كما في «طبقات الشافعية»: (٨/ ٢١٢)، و «طبقات المفسرين»: (١/ ٣٢١)، وعلي بن حمزة الكِسائي النحوي، كما في «تاريخ بغداد»: (١١/ ٤٠٤). وكذلك عدد من الشعراء، كالنابغتين الجَعْدي والذُّبياني، انظر: «الشعر والشعراء» (ص ١٣١، ٦١) على التوالي.

(١) (١٦/ ٢٣٠)، وقد وصفه الذهبي بقوله: «وكان عالمًا إخباريًّا، وقورًا، نسيجَ وَحْدِه» قال الذهبي: «ومن محاسنه أنه شدَّد في الخمر في ممالكه، وأبْطَلَه بالكلِّية، وأَعْدَمه، وكان يتأدَّب مع العلماء والعبَّاد» اهـ.

الكتب النفيسة الكثيرة حقّها وباطلها، بحيثُ إنها قاربت نحوًا من مئتي ألفِ سِفر...

وكان باذلًا للذهب في استجلاب الكتب، ويُعطي من يتَّجِرُ فيها ما شاء، حتَّى ضاقت بها خزائِنُه، لا لذَّة له في غير ذلك.

وكان الحَكَمُ موثَّقًا في نقلِه، قلَّ أن تجد له كتابًا إلا وله فيه نظرٌ وفائدة، ويكتب اسمَ مؤلفه ونَسبَه ومولِدَه، ويُغرب ويُفيد» اهـ.

الاشتغال عن النوافل بإتمامِ مطالعة كتاب

وفي ترجمة الإمام تقي الدين ابن دقيق العيد (ت ٧٠٢) من كتاب «**الطالع السعيد**»[١] للأُدْفَوي: أنه لما وصل إليه كتاب «**الشرح الكبير**»[٢] للإمام الرافعي ـ وكان اشتراه بألف درهم ـ اشتغلَ بمطالعته، وصار يقتصر من الصلوات على الفرائض فقط[٣].

(١) (ص ٥٨٠)، وانظر: «جواهر العِقْدَين في فضل الشرفَيْن»: (١/ ١١٩).

(٢) المسمَّى: «فتح العزيز على كتاب الوجيز» للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن محمد القزويني الرافعي (ت ٦٢٣) في فقه الشافعية، وقد طبع كاملًا أخيرًا.

(٣) وفي مسألة تقديم نوافل العلم على نوافل العبادة بحثٌ.

الانكباب على النظر والقراءة حتى في المجالس الخاصَّة

قال ابنُ القاضي المِكْناسي في «**دُرَّةِ الحِجال**»[١] في ترجمة محمد بن عليٍّ بن سليمان السَّطِّي (ت ٧٤٩): «**وكان مُقبلًا على ما يَعْنيه، مُكِبًّا على النظر والقراءةِ والتقييد، لا تراه أبدًا إلا على هذه الأحوال حتى في المجلس السلطاني...**» اهـ.

ونحوه عن أبي العباس اللغوي المعروف بثَعْلَب (ت ٢٩١)، فقد جاء في كتاب: «**الحث على طلب العلم والاجتهاد في جَمْعه**»[٢] لأبي هلالٍ العَسْكري قال: «**وحُكيَ عن ثعلب أنه كان لا يُفارقه كتابٌ يَدْرُسه، فإذا دعاه رجل إلى دعوةٍ، شَرَطَ عليه أن يوسعَ له مقدارَ مِسْوَرَةٍ يضعُ فيها كتابًا ويقرأ**».

ثلاثة لا يُعْلم أكثر منهم محبة في القراءة

ذكر ياقوت الحموي في «**إرشاد الأريب**»[٣] في ترجمة الجاحظ قال: «وحدَّث أبو هِفَّان قال: لم أر قط ولا سمعتُ مَنْ

---

(١) (٢/ ١٣٥). وقال عنه: «وكان يُعْتَبر خِزَانة مذهب مالك، مع مشاركة تامة في الحديث والأصلين واللسان».

(٢) (ص ٧٧). والمسورة هي: الوسادة.

(٣) (١٦/ ٧٥)، وأسنده الخطيب في «تقييد العلم» (ص ١٣٩ ـ ١٤٠) بسياق آخر ـ قريب ـ عن المبرّد.

أحبَّ الكتبَ والعلومَ أكثر من الجاحظ، فإنه لم يقع بيده كتابٌ قطٌّ إلا استوفى قراءتَه كائنًا ما كان، حتى إنّه كان يكْتري دكاكين الورَّاقين ويبيتُ فيها للنظر.

والفتح بن خاقان، فإنه كان يحضر لمجالسة المتوكِّل، فإذا أراد القِيام لحاجةٍ أخرجَ كتابًا من كُمه أو خفِّه وقرأه في مجلس المتوكل إلى حِين عَوْده إليه حتى في الخلاء.

وإسماعيل بن إسحاق القاضي، فإني ما دخلتُ إليه إلا رأيتُه يَنظر في كتابٍ، أو يُقلب كتبًا أو ينفضها» اهـ.

في المقبرة أو مع الكتاب

قال الجاحظ في كتاب «**الحيوان**»[(١)]: «قال ابنُ داحة: كان عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب لا يجالِسُ الناسَ، وينزلُ مقبُرَة من المقابر، وكان لا يكاد يُرى إلا وفي يده كتابٌ يقرؤه، فسُئل عن ذلك، وعن نزوله المقبُرَة؟ فقال: لم أرَ أوْعظ من قَبْر، ولا أمنعَ من كتابٍ، ولا أسلَمَ مِن الوَحْدة. فقيل له: قد جاء

(١) (١/ ٦٢). وأسنده الخطيب في «تقييد العلم» (ص ١٤٢)، وابن عبد البر في «الجامع»: (٢/ ١٢٣١).

في الوَحْدة ما جاء! فقال: ما أفْسَدَها للجاهل وأصلحها للعاقل![١]» اهـ.

مجلسه بين كتبه أفخم وأنبل من مجلسه بين حاشيته

قال الجاحظ في «الحيوان»[٢]: «ولقد دخلتُ على إسحاق بن سليمان في إمْرَته، فرأيتُ السِّماطَين[٣] والرجال مُثُولًا كأنّ على رؤوسهم الطير، ورأيتُ فِرشته وبِزَّته، ثم دخلتُ عليه وهو معزول، وإذا هو في بيت كتبِه، وحواليه الأسفاط والرُّقوق، والقماطِر والدفاتر، والمساطر والمحابِر، فما رأيته قط أفخمَ ولا أنبلَ، ولا أهيبَ ولا أجزلَ منه في ذلك اليوم، لأنه جمعَ مع المهابَةِ المحبَّةَ، ومع الفخامةِ الحلاوةَ، ومع السُّؤدَدِ الحِكمةَ» اهـ.

---

(١) سئل أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي: «ما تقول في عُزلة الجاهل؟ فقال: خَبَال ووبال، تضرّه ولا تنفعه. فقيل له: فعزلة العالم؟ قال: ما لَكَ ولها، معها حِذاؤها وسِقاؤها، ترِد الماء وترعى الشجر، إلى أن يلقاها ربُّها» «ذيل الطبقات»: (١/ ١٦١)، وانظر: «العزلة» للخطابي، وابن الوزير، والعودة.

(٢) (١/ ٦١ ـ ٦٢).

(٣) صَفَّين من الجنود وغيرهم.

أربعون عامًا لا ينام إلا والكتاب على صدره

قال الجاحظ في «**الحيوان**»[١]: «سمعتُ الحسن اللؤلؤي[٢] يقول: غَبَرْتُ أربعين عامًا ما قِلْتُ ولا بِتُّ ولا اتكأتُ إلا والكتابُ موضوعٌ على صدري».

إذا غلبَه النومُ أمسكَ كتابًا ليطرده

«قال ابن الجَهْم[٣]: إذا غشيني النُّعاس في غير وقت نومٍ ـ وبئس الشيءُ النومُ الفاضِلُ عن الحاجة ـ قال: فإذا اعتراني ذلك تناولتُ كتابًا من كتب الحِكَم، فأجدُ اهتزازي للفوائد، والأريحية التي تعتريني عند الظَّفَر ببعض الحاجة، والذي يَغْشى قلبي من سرور الاستبانة وعزّ التبيين[٤] أشدَّ إيقاظًا من نهيق الحمير وهَدَّة الهَدْمِ».

أقول: فهذا غايةٌ في الشَّغَفِ والتعلُّقِ بالكتابِ والعلم! فإذا غَلَبه النُّعاس طردَه باستجلاب الكتب والنظر فيها، فيهتزُّ لفوائدها، ويَطْرَبُ لحِكَمها.

---

(١) (١/ ٥٢ ـ ٥٣).

(٢) الكوفي، صاحب أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٣) نقله عنه الجاحظ في «الحيوان»: (١/ ٥٣).

(٤) قال العلامة عبد السلام هارون: لعلها: «التبيّن».

فأين هذا من (طُلابٍ!) يستجلبون النومَ بالنظر في الكتب؟! فاختلاف الحالين وتبايُن النتيجتين تَبَعٌ لاختلاف مكانة العلم والكتب عند الفريقين[١]!

ضَعُفَ بصرُه من كثرة المطالعة

وفي ترجمة الحافظ عبد الغني المقدسي صاحب «**الكمال**»[٢] (ت ٦٠٠) من كتاب «**ذيل الروضتين**»[٣] لأبي شامة المقدسي قال: «**وكان قد ضعف بصرُه من كثرة المطالعة والبكاء، وكان أوحدَ زمانه في علم الحديث**» اهـ.

---

(١) وينطبق على هؤلاء الكُسالى ـ لا كثَّرهم الله ـ ما ذكره الجاحظ في «البيان والتبيُّن»: (١/ ١٧٠) قال: «قال رجل لخالد بن صفوان (أحد بلغاء العرب وفصحائها): ما لي إذا رأيتكم تتذاكرون الأخبار، وتتدارسون الآثار، وتتناشدون الأشعار، وقعَ عَلَيَّ النوم؟! قال: لأنك حمارٌ في مِسْلاخِ إنسان!» اهـ

(٢) «الكمال في معرفة الرجال» في رجال الكتب الستة، لا يزال مخطوطًا، وهو أصل «تهذيب الكمال» للمِزِّي وفروعه، انظر مخطوطاته في «الفهرس الشامل ـ الحديث»: (٢/ ١٣٠٢).

(٣) (ص ٤٧).

همته في المطالعة والقراءة

قال السخاوي في «**الجواهر والدرر**»[(١)] عن شيخه الحافظ ابنِ حجر: «**إنما كانت همته المطالعة والقراءة، والسَّماع والعبادة، والتصنيف والإفادة، بحيث لم يكن يُخْلي لحظةً من أوقاته عن شيءٍ من ذلك، حتى في حال أكْلِه وتوجُّهه وهو سالك، كما حكى لي ذلك بعض رُفْقَته الذين كانوا معه في رحلته، وإذا أراد الله أمرًا هيَّأ أسبابَهُ**[(٢)].

وقد سمعته رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول غيرَ مرَّة: إنني لأتعجَّب ممن يجلس خاليًا عن الاشتغال!» اهـ.

أقول: رحم الله القائل ـ وهو أبو بكر الشهرزوري ـ:

هِمَّتي دُوْنها السُّها والزُّبانا[(٣)] قد عَلَت جهدها فما يتدَانَى
فأنا مُتْعَبٌ مُعَنًّى إلى أن تتفانى الأيامُ أو أَتَفانَى

---

(١) (١/ ١١٠)، (١/ ١٧٠ ـ ط ابن حزم).

(٢) ذكر السخاوي عن شيخه عجائب في القراءة، والكتابة، والهِمَّة في تحصيل العلوم، سُقْنا طرفًا منها في تفاريق كتابنا هذا ـ رحم الله الجميع ـ.

(٣) السُّها: نجم معروف، والزُّبانا: كوكبان نَيِّران في قرنَي العقرب.

مع الكتب حتى في الجنَّة

ذكر ابنُ رجب في «**ذيل الطبقات**»(١) عن ابنِ الجوزي أنه قال عن الإمام أبي العلاء الهَمَذَاني الحافظ (ت ٥٦٩): «بلغني أنه رُئيَ في المنام في مدينةٍ جميع جدرانها من الكتب، وحوله كتب لا تُحَدّ وهو مُشْتَغل بمطالعتها. فقيل له: ما هذه الكتب؟ قال: سألتُ الله أن يُشغلني بما كنتُ أشتغل به في الدنيا، فأعطاني».

باع بيته من أجل كتبه

ومما يدلك على عظيم شَغَفه بالكتب، وبذله في تحصيلها كلَّ نفيس حتى داره التي يسكنها! ما في كتاب ابن رجب عن الإمام طلحة العَلْثي قال: «بِيْعت كتبُ ابنِ الجواليقي في بغداد، فحضرها الحافظُ أبو العلاء الهَمَذَاني، فنادَوا على قطعةٍ منها: ستين دينارًا، فاشتراها الحافظ أبو العلاء بستين دينارًا، والإنظار من يوم الخميس إلى يوم الخميس.

فخرج الحافظ، واستقبل طريقَ هَمَذَان، فوصل، فنادى على دارٍ له، فبلغت ستين دينارًا. فقال: بيعوا. قالوا: تبلغ أكثر من ذلك. قال: بيعوا. فباعوا الدار بستين دينارًا فقَبَضَها، ثم رجع

---

(١) (٣٢٨/١)، ووقع فيه: «الهمداني» بالدال المهملة، وهو خطأ.

إلى بغداد. فدخلها يوم الخميس، فوفَّى ثمنَ الكتب، ولم يشعر أحدٌ بحالِهِ إلا بعد مُدَّة» اهـ.

ومما يُؤثر ـ أيضًا ـ في بيع العلماء بيوتهم من أجل شراء الكتب ما ذكره ابن رجبٍ في «**ذيل الطبقات**»[١] في ترجمة العلامة النحوي عبد الله بن أحمد المعروف بابن الخشَّاب (ت ٥٦٧) عن ابنِ النجار قال:

إنه لم يَمُت أحدٌ من أهل العلم وأصحاب الحديث، إلا وكان يشتري كتبه كلَّها، فحصلت أُصول المشايخ عنده.

وذَكَرَ عنه: أنه اشترى يومًا كتبًا بخمس مئة دينارٍ ولم يكن عنده شيءٌ، فاستمهلهم ثلاثة أيامٍ، ثم مضى ونادى على داره، فبلغت خمس مئة دينار، فَنَقَد صاحبَها وباعه بخمس مئة دينار، ووفَّى ثمن الكتب، وبقيت له (لصاحب الكتب) الدار[٢].

---

(١) (١/ ٣١٩).

(٢) إلا أنهم ذكروا في ترجمته أمورًا تُخِل بقاموس العلم.
فذكر ياقوت في «إرشاد الأريب»: (١٢/ ٥١): أنه كان إذا حَضَر سوق الكُتُبِ، وأراد شِراء كتابٍ، غَافَل الناسَ وقطعَ منه ورقةً، وقال: إنه مقطوع ليأخذَه بثمنٍ بخسٍ! وذكر ذلك الذهبي في «السير»: (٢٠/ ٥٢٧)، قال: ولعلَّه تاب. وذكر منامًا!
وذكر ياقوت ـ أيضًا ـ أنه كان إذا استعار من أحدٍ كتابًا وطالبه به، قال:

الكتب أشد من ثلاث ضرائر

أخرج الخطيبُ في «**الجامع لأخلاق الراوي**»(١) عن الزُّبير ابن أبي بكر بكَّارٍ قال: قالت ابنة أختي لأهلنا: خالي

دَخَلَ بين الكُتُب فلا أقدر عليه!!

وأشار السمعاني إلى مجمل ذلك، فقال: «وجمع الأصول الحِسَان من أيِّ وجهٍ اتفق له» وزاد: وكان يضنّ بها!

إلا أن القِفْطي في «إنباه الرواة»: (٢/ ١٠١) ذم مُقْتنيات ابن الخشَّاب من الكتب فقال: «وكان لا يقتني من الكتب إلا أردأها صورة، وأرخصها ثمنًا»، وهذا مخالف لما سبق!

أقول: فلهذه الأمور مجتمعة = تحايله في تحصيل الكتب، وجحْده العارِيَّة، وضَنِّه بالكتب على أهلها = تفرَّقت بعدَه، وبِيعَ أكثرها، ولم يبق إلا عُشرها. ووصفها القِفْطي بقوله: «وكانت له دار عتيقة... وله منها صُفَّة كبيرة منفردة، وبها بواري قَصَبٍ مفروشة، وفي صدرها ألواح من الخشب، مرصوص عليها كتب له، أقامت عِدَّة سنين ما أُزيل عنها الغُبار، وكانت تلك البواريّ قد استترت بما عليها من التراب، يقعد في جانب منها، والباقي على تلك الحالة. وقيل: إن الطيور عششت فوق الكتب وفي أثنائها» اهـ. «إنباه الرواة»: (٢/ ١٠٠).

قلت: وما فعله ابنُ الخشَّاب، يُعدّ من مسوِّغات ذِكْرِه بما يكره، ولا يُعَدّ ذلك غيبة، بل هو نصيحة واجبة، كما نبّه عليه السخاوي في «الإعلان بالتوبيخ» (ص٨٨).

(١) (١/ ١٤٩ ـ ١٥٠)، وانظر «سير النبلاء»: (١٢/ ٣١٣).

وزوجته خبيرةٌ به، طويلة العِشْرة معه، فقد سُئل الزبير: مُنْذ كم زوجتك معك؟ قال: لا تسألني، ليس ترِدُ القيامة أكثر كِباشًا منها، ضحَّيتُ عنها سبعينَ كَبْشًا. «تاريخ بغداد»: (٨/ ٤٧١).

خيرُ رجلٍ لأهله، لا يتخذ ضرَّةً ولا يشتري جارية. قال: تقولُ المرأةُ (أي زوجته): واللهِ لَهَذه الكتب أشدُّ عليَّ من ثلاثِ ضرائر!» اهـ.

حتى أحلام اليقظة في الكتب

ذكر السَّمهودي في «**جواهر العِقْدَين في فضل الشرَفَيْن**»(١) عن شيخه أبي زكريا المُنَاوي (ت ٨٧١) قال: أخبرني شيخُنا الشيخ وليُّ الدين (يعني أبا زُرْعة بن الحافظ زين الدين العِراقي) مذاكرةً: أنه ركبَ مع شخصٍ من المكاريَّة من طائفة الريافة، قال: فقلتُ في نفسي ـ وقد خاضت في الأمل ـ: لو كان لي أربعُ زوجاتٍ في أربع مساكن، وفي كلِّ مسكنٍ من الكتب التي أحتاجها نظير ما في بقيَّة المساكن...»(٢) اهـ.

---

(١) (١/ ١٦٢).

(٢) وإذ قد ذُكر الغرام بالنساءِ والكتب، فهذا القاضي برهان الدين الزُّرعي الحنبلي (ت ٧٤١) كان مُغرمًا بالجواري التركيات، قال الصفدي في: «أعيان العصر»: (١/ ٤٥): «كنتُ أراه جُمعةً في سوق الجواري، وجُمعةً في سوق الكتب، ليجمع بذلك بين الدُّر والدراري!» اهـ.

لا تمضي عليه ساعة إلا في اشتغالٍ بالعلم

نقل ابن رجب في «ذيل الطبقات»[١] في ترجمة العلامة أبي البقاء عبد الله بن الحسين العُكْبَري (ت ٦١٦) عن ابن النجار قولَه: «قرأتُ عليه كثيرًا من مصنَّفاته، وصَحِبْته مدَّة طويلة... وكان مُحِبًّا للاشتغال والإشغال[٢]، ليلاً ونهارًا، ما يمضي عليه ساعة إلا وواحد يقرأ عليه، أو يُطَالع له، حتى ذكر لي أنه بالليل تقرأ له زوجته في كتب الأدب وغيرها».

التحسُّر على الكتب وجعلها بمنزلة الولد

وذكر ابن رجب في «الذيل»[٣] في ترجمة عبد الصمد بن أحمد ابن أبي الجَيْش البغدادي العلامة المتفنِّن (ت ٦٧٦) أنه صنَّف خُطبًا انفرد بِفنِّها وأُسلوبها، وما فيها من الصَّنْعة والفصاحة، وجمع منها شيئًا كثيرًا، ذهبَ في واقعة بغداد[٤]، مع

(١) (٢/ ١١١).

(٢) أي: للتعلُّم والتعليم.

(٣) (٢/ ٢٩٢).

(٤) يعني: واقعةَ هجوم التتار عليها، وسقوط الخلافة العباسية سنة (٦٥٦).
أقول: يَكْثر ذِكْر هذه الواقعة عند الحديث عن الكتب وما أُتلِفَ منها... ويستكثر الناسُ من إيراد أخبار التتار وما فعلوه، لكن أعجبتني لفتة لتاج الدين السبكي في «طبقاته»: (١/ ٣١٢) فبعد أن ذكر بضعَ صفحاتٍ من أخبارهم =

كتبٍ لـه أُخـرى بخطِّـه وأُصولـه، حتـى كان يقول: «**فـي قلبي حَسْرتان: ولدي وكُتُبي**» (وكانا قد فُقِدا جميعًا في واقعة بغداد).

لا يمشي إلا وفي يده كتاب

كان كثير من مشاهير العلماء لا يمشي إلا وفي يده كتب أو أجزاء يُطالعها، وذلك لمزيد شغفهم بالقراءة والاطلاع، وعظيم حرصهم على أوقاتهم من الضياع.

قال الذهبي في «**السير**»[(١)]: «قال ابنُ الآبنوسي: كان الحافظ الخطيب يمشي وفي يده جُزْءٌ يُطالعه».

وفـي «**تذكـرة الحفـاظ**»[(٢)] للذهبـي فـي ترجمـة أبـي داود السجستاني صاحب «**السنن**»: «قال ابنُ دَاسَة: كان لأبي داود كُمٌّ واسـع وكمٌّ ضيِّق، فقيـل له في ذلـك؟ فقال: الواسـع للكتب، والآخر لا يُحتاج إليه»[(٣)].

= قال: «ويكفي الفقيه ما أوردناه، فأوقات طالب العلم أشرف من أن تضيع في أخبارهم، إلا للاعتبار بها، وما أوردناه عبرة للمعتبرين، وكافٍ للمتَّعظين» اهـ.

(١) (١٨/ ٢٨١).

(٢) (٢/ ٥٩٢).

(٣) تنبيه: قال شيخ الإسلام: «لم يكن النبي ﷺ وأصحابه يتخذون الأكمام الطوال ولا الواسعة سعة كبيرة، بل قد تقدم أن كم قميص النبي ﷺ كان =

وفي ترجمة العلامة النحوي أحمد بن يحيى المعروف بثَعْلَب (ت ٢٩١) من كتاب «**وفيات الأعيان**»(١) لابن خَلِّكان قال: «كان سبب وفاته: أنه خرج من الجامع يوم الجمعة بعد العصر، وكان قد لحقه صَمَمٌ لا يسمع إلا بعد تعب، وكان في يده كتاب ينظر فيه في الطريق، فصدمَتْه فرسٌ، فألقَتْهُ في هُوَّةٍ، فأُخرج منها وهو كالمختلط، فحُمِل إلى منزله على تلك الحال وهو يتأوَّه مِن رأسه، فمات ثاني يومٍ» اهـ.

وذكر العسكري في «**الحث على طلب العلم**»(٢): أن أبا بكرٍ الخياط ـ العلامة النحوي محمد بن أحمد البغدادي (ت ٣٢٠) ـ كان يَدْرُسُ جميعَ أوقاته، حتى في الطريق، وكان ربَّما سقَط في جُرْف أو خبطته دابَّة».

وتقدم معنا خبر الإمام سُلَيم الرازي(٣).

= إلى الرسغ، وهذه الزيادة سرف... وبعض الناس يقول: إنما اتخذها بعض المنتمين إلى العلم، لأجل حمل الكتب فيها. وما يروى عن بعض الأئمة: أن أحد كُمّيه كان واسعًا والآخر ضيقًا فهو كذب». انظر «جامع المسائل»: (٧/ ١٤٧ ـ ١٤٨ ـ بتحقيقي).

(١) (١/ ١٠٤).

(٢) (ص ٧٧).

(٣) (ص ٦٢).

وكان كثير من العلماء يُقرأ عليه الكتاب وهو يمشي في الطريق صِيانة للوقت، وحبًّا في الإفادة، كما هو الحال في ترجمة الحافظ أبي نعيم الأصبهاني(ت ٤٣٠) صاحب «**حلية الأولياء**» كما في «**تذكرة الحفاظ**»[١].

وكذلك الإمام علم الدين السخاوي المقرئ (ت ٦٤٣) كما في ترجمته من كتاب «**طبقات القراء الكبار**»[٢].

أقول: وممن شهدناه على هذه الحال في القراءة عليه واستفتائه وهو يمشي وفي السيارة: شيخنا وشيخ مشايخنا العلامة عبد العزيز بن باز (ت ١٤٢٠) رحمه الله تعالى فقد كان ذلك ديدنه وهِجِّيْراه، بنفسٍ منشرحة ووجهٍ طَلِق، فجزاه الله عن العلم وأهله خيرًا.

استوفى مكتبته قراءةً، وفيها (٧٠٠) مجلد

ففي ترجمة أبي بكر بن أحمد تقي الدين ابن قاضي شُهبة[٣] من «**الضوء اللامع**»[٤] قال: «وكتب بخطه الكثير،

---

(١) (٣/ ١٠٩٤).

(٢) (٣/ ١١٠٥).

(٣) معروف كسَلَفِه بابن قاضي شُهْبَة، لكون النجم والد جده أقامَ قاضيًا بشُهْبة السوداء أربعين سنة.

(٤) (١١/ ٢٣).

بحيث لو قال القائل: إنه كتب مئتي مجلد لم يتجاوز، وخطه فائق دقيق.

وبِيْع في تركته نحو سبع مئة مجلد، كاد أن يستوفيها مطالعةً» اهـ.

يقطع الليل جميعه في القراءة على السِّراج

ذكر القاضي عياض في «**ترتيب المدارك**»[1] في ترجمة الإمام الفقيه أبي محمد عبد الله بن إسحاق المعروف بابن التَّبَّان (ت ٣٧١) أنه قال عن نَفْسِه: كنت أول ابتدائي أدرس الليل كلَّه، فكانت أُمي تنهاني عن القراءة بالليل، فكنت آخذ المصباح وأجعله تحت الجفنة وأتعمَّد النوم، فإذا رَقَدَتْ أخرجتُ المصباحَ وأقبلتُ على الدرس.

قال القاضي: وكان كثير الدرس، ذكر أنه دَرَسَ كتابًا ألفَ مَرَّةٍ» اهـ.

وذكر الوزير القِفْطي في «**إنباه الرواة**»[2] في ترجمة أبي القاسم ابن أبي منصور النحوي الحلبي المعروف

(١) (٧٨/١).
(٢) (١٦٥/٤).

بابن الحَبْرَاني (ت ٦٢٨) ـ وكان الوزير قد صَحِبَه وجالسَه ـ: «أنه كان شديد الاجتهاد في طلب الفوائد من صفحات الصُّحف، فلازمَ المطالعةَ ليلًا ونهارًا، وتلَزَّم الحفظَ لبعض ما يمرّ به في أثناء ذلك.

قال: ولقد حكى لي الشريف أبو هاشم بن أبي حامد... صديقي رَحِمَهُ اللَّهُ قال: أخبرني جارٌ له، قال: رأيتُ ابن الحَبْراني النحوي في زمن الصيف، يقوم في الليل الأخير في سطحه، وَيَقِدُ سراجًا في موضعٍ خالٍ من الهواء، ويقعد للمطالعة وقتًا طويلًا دائمًا في كلِّ ليلة، لا يشغله الحرُّ ولا القَرُّ عن المطالعةِ والاستفادة» اهـ.

الشغف بجمع الكتب ومعرفته بها

ذكر الحافظ ابن حجر في «**الدرر الكامنة**»[1] في ترجمة شافع بن علي الكناني (ت ٧٣٠): «أنه كان يُحب جمع الكتب، حتى إنه لما مات ترك نحو العشرين[2] خزانة ملأى من الكتب النفيسة.

---

(١) (٢/ ١٨٤)، وترجمته مطوّلة في «أعيان العصر»: (٢/ ٥٠١ ـ ٥١٢) للصفدي.

(٢) في «الأعيان»: «ثماني عشرة».

وكان من شـدَّة حُبِّه للكتب، إذا لمس الكتـابَ يقول: «هذا الكتاب الفلانـي، ملكتُه في الوقت الفلانـي، وإذا طُلِبَ منه أيّ مجلَّد كان، قام إلى الخزانة فتناوله كأنه كما وضعه فيها». اهـ.

التألُّـم والحَسْرة على بيع الكتب

قال ابن خلكان في ترجمة الشـريف المرتضى أبي القاسم علي بن الطاهر (ت ٤٣٦) في كتابه «**وفيات الأعيان**»[١]: «**حكى الخطيـب أبو زكريـا يحيى بـن علـي التِّبْريـزي اللغـوي، أن أبا الحسـن علي بن أحمد بن علي بن سـلَّك الفالي**[٢] **الأديب، كانت له نسـخة بكتاب «الجمهرة»** لابن دُرَيْد في غاية الجَوْدَة، فدَعَتْـه الحاجةُ إلى بيعها فباعها، واشـتراها الشـريف المرتضى أبو القاسم ـ المذكور ـ بستين دينارًا، وتصفَّحها فوجدَ بها أبياتًا بخطِّ بائعها أبي الحسن الفالي، وهي:

أَنِسْـتُ بها عِشْـرينَ حـولًا وَبِعْتُها
لقـد طالَ وَجْـدي بعدَهـا وحنيني

---

(١) (٤/ ١٦٥).

(٢) بالفاء، وقد تصحّف في كثير من المصادر إلى «القالي» بالقاف! ونبّه على هذا الخطأ غير واحد، منهم أخي د. محمد أجمل الإصلاحي في مقالٍ له بهذا الخصوص. انظر كتابه «بحوث ومقالات» (ص ١٥٥ ـ ١٨٠).

وما كـان ظَنِّي أَنَّني سأَبيعها
ولو خلَّدتني في السجون ديوني
ولكن لضعفٍ وافتقارٍ وصِبْيَةٍ
صِغارٍ عليهم تَسْتَهِلُّ شُؤوني
فقلتُ ولم أَمْلك سوابق عَبْرةٍ
مقالة مكويِّ الفؤادِ حَزِينِ:
«وقد تُخرِجُ الحاجاتُ يا أمَّ مالكٍ
كرائمَ من ربٍّ بهنَّ ضنينِ» اهـ

وذكر السخاوي في «الضوء»[1] في ترجمة إبراهيم بن علي بن أحمد جمال الدين القَلْقَشندي القاهري أنه باع كتبَهُ أو جلَّها، قال: وقَاسَى مالا يُعَبَّر عنه، وتألَّمْنا له في ذلك!

* * *

(1) (٣/٣١٦).

صور من العصر الحديث

بعد هذا التطواف في رحاب العلماء في قرون غابرة وأقطارٍ متباعدة، كأنِّي بقائل يقول: تلك أمةٌ قد خلت، وجيلٌ قد ذهب، فهل لك في أمثلة قريبة ونماذج حيَّة؟

فنقول: نعم، وما أكثرها!

الشيخ العلامة جمال الدين القاسمي الدمشقي (ت ١٣٣٢)

يقول عن نفسِه وهو يتكلم على علوّ الهِمَّة، في كتابه «**الفضل المبين**»[١]: «وقد اتفق لي بحمده تعالى قراءة «صحيح مسلم» بتمامه روايةً في أربعين يومًا، وقراءة «**سنن ابن ماجه**» كذلك في واحدٍ وعشرين يومًا، وقراءة «**الموطَّأ**» كذلك في تسعة عشر يومًا، وقراءة «**تهذيب التهذيب**»[٢] مع تصحيح سهو القلم فيه وتَحْشيته في نحو عشرة أيام.

(١) (ص٥٣ ـ ٥٤)، وذكر القاسميُّ ـ أيضًا ـ هذه القراءة في كتابه «قواعد التحديث» (ص٢٦٣)، وكان تاريخ هذه القراءة في سنتي (١٣١٥ ـ ١٣١٦).

(٢) في «قواعد التحديث»: «تقريب التهذيب».

فدع عنك أيُّها اللائم الكسلَ، واحرص على عزيز وقتك بدرس العلم وإحسان العمل» اهـ.

وذكر فيه[(١)] ـ أيضًا ـ أنه قرأ «**تاريخ دمشق**» لابن عساكر (ت ٥٧١)، وقد طبع هذا التاريخ الآن في ثمانين مجلَّدًا[(٢)].

الشيخ المحدِّث محمد بدر الدين الحسني (ت ١٣٥٤)

ومن شأنه أنه (حفظ الصحيحين غيبًا بأسانيدهما، ونحو «٢٠ ألف» بيت من المتون العلمية)[(٣)]. كان شديد التشاغل بالعلم والعكوف على طلبه والانقطاع إليه، حتى بلغ من ذلك شيئًا عظيمًا.

قال الشيخ علي الطنطاوي[(٤)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «بل كان يجلس في الليل ليقرأ، فإذا غلبه النُّعاس اتكأ برأسه على وسائد أُعِدت له، فأغفى ساعتين أو ثلاثًا من الليل متقطعات، ومن النهار ساعة».

---

(١) (ص ٣٦٣).

(٢) مع خرومٍ في أثنائه، لعلها تبلغ مجلدات.

(٣) قاله عَصْرِيُّه الزِّركلي في «الأعلام»: (٧/ ١٥٨).

(٤) «رجال من التاريخ» (ص ٣٨١ ـ ٣٨٢). والشيخ بدر الدين الحسني هو جدّ الأستاذ علي الطنطاوي لأمه.

وقال: «كان يقرأ دائمًا لا يشغله عن القراءة إلا أن يكون نائمًا أو في صلاة أو درس، أو في طريقه من المسجد إلى البيت، ما فارق الكتب قطُّ، ولا استعان على النظر بنظارة، وقد مات حديد البصر صحيحه، وما أحبَّ في الدنيا غير الكتب... فكان يشتري الكتابَ يسمعُ به ولو كان مطبوعًا في أقصى الهند، ويشتري المخطوط ولو بوزنه ذهبًا، ولا يدع كتابًا حتى يقرأه، أو يتصفحه تصفّح المتثبِّت...».

العلامة طاهر الجزائري (ت ١٣٣٨)

كان الشيخ طاهر لا يترك العلم في كل أوقاته؛ من قراءة وتنقيب وتحقيق وتأليف.. وكان إذا استحسن كتابًا طالعه عدة مرات، وكان فراشه محاطًا بسور من الكتب والأوراق والمحابر والأقلام.

وكان من عادة الشيخ خلال الأربعين سنة الأخيرة من حياته أن لا ينام إلا إذا صلى الصبح... يبقى من بعد العشاء إلى الفجر يقرأ ويؤلف[1].

(١) «الشيخ طاهر الجزائري» (ص ٣٠ ـ ٣١) لحازم محيي الدين.

أديب العربية الكبير مصطفى صادق الرافعي (ت ١٣٥٤)

قال تلميذه محمد سعيد العُريان[1]: «**وحسبك أن تعلم أنّ الرافعي لم يتهيأ لكتابة هذا الفصل (في البلاغة النبوية) حتى قرأ «صحيح البخاري»** كله قراءة دارس، وأنفق في ذلك بضعة عشر يومًا، وهو وقت قليل لا يتسع للقارئ العَجِل أن يقرأ فيه **«صحيح البخاري»** قراءةَ تلاوةٍ، فكيف به دارسًا متمهّلًا يقرأ ليتذوّق بلاغة الأسلوب ودقة المعنى؟

ولكن ذلك ليس عجيبًا من الرافعي الذي كان يقرأ كل يوم ثماني ساعات متوالية لا يمل، فلا ينهض عن كرسيه حتى يوجعه قلبه! وكتب الفصل بعد ذلك في ثلاثة أيام، ثم دفعه إليَّ لأكتبه بخطي ولم يمله عليَّ، فأنفقت في كتابته ثلاثة أيام أخرى».

الأديب إبراهيم المازني (ت ١٣٦٨)

قال يحكي عن نفسه: «وأمري مع الكتب أغرب؛ كنت في أول عهدي بها ـ أي منذ عشرين سنة أو نحو ذلك ـ أذهب في أول كل شهر إلى واحد من باعتها، فيتقدم إليّ العامل سائلًا

(١) «حياة الرافعي» (ص ٢١٥ ـ ٢١٦).

عن حاجتي، فأبينها له، فيرفع رأسه إلى الرفوف ويدور حول نفسه وهو في مكانه ثم يلتفت إلي وعلى شفتيه ـ دون عينيه ـ ابتسامة جهل وغباء، ويهزّ لي رأسه آسفًا! فأنحّيه عن الطريق وأمضي إلى الرفوف وأجيل عيني فيها وآخذ منها ما يروقني، وأنصرف عن الحانوت بأثقل من حِمْل حمار! وأغرق فيها بقية الشهر إلى ما فوق الأذنين ـ إن كان فوقها شيء يستحق الذكر! ـ وكنت لا أتخطّى عتبة البيت إلا متأبطًا كتابًا، ولا تمضي عليَّ ليلة إلا طالعت في بعضها قليلًا أو كثيرًا.

وكانت الكتب أنيسي في وحدتي وسميري في خلوتي، وكنت أستغني بها عن مُتَع الحياة ولذّات العيش وأقول إنها: «تدخل في متناول الحس، والعواطف والمدركات، وكل ما له وجود في العقل»

وإنها توقظ الحواس الخامدة والمشاعر الراكدة وتملأ القلب وتشعر النفس كل ما تستطيع الطبيعة البشرية احتماله، وكل ما له قدرة على تحريكها وابتعاثها، وتدرّب المرء على الاستمتاع بتدبر عظمة الجلال والأبد والحق، وإنها تمثل ذلك للإحساس وتحضره للذهن وتكشف لنا عن وجوه الألم والحزن والخطأ والإثم، وإنها تعين القلب على تعرُّف الهول

والفزع والسرور واللذة، وتخفق بالوهم على جناح الخيال وتفتنه بسحر عواطفه وخواطره، وإنها تسدّ النقصَ في تجارب المرء، وتثير فيه تلك العواطف التي تجعل حوادث الحياة أشدّ تحريكًا لها، وتجعله أشدّ استعدادًا بقبول المؤثّرات على اختلاف أنواعها ودرجاتها»[١].

الأديب العالم علي الطنطاوي (ت ١٤٢٠)

ومثالٌ حيٌّ كان بين أظهرنا لشهور مضت هو العلّامة الأديب البليغ صاحب القلم الأنيق والعبارة الرشيقة[٢] الشيخ عليّ الطنطاوي (ت ١٤٢٠) رحمه الله تعالى له مقال في **«الذكريات»**[٣] عنوانه: «شغلي الدائم المطالعة».

ذكر فيه ولعه الدائم بالمطالعة من صغره وهو في المدرسة الابتدائية بدون إرشاد مُرْشِد ولا تعليم مُعَلِّم ثم قال: «فأنا اليوم، وأنا بالأمس، كما كنت في الصغر، أُمضي يومي أكثره في الدار أقرأ، وربما مرّ عليَّ يوم أقرأ فيه ثلاثمئة صفحة، ومعدَّل قراءتي مئة صفحة من سنة (١٣٤٠) إلى هذه السنة (١٤٠٢).

(١) «قبض الريح» (ص ٧ ـ ٨).
(٢) أسلوبه الذي يكتب به لم يُقلِّد فيه أحدًا، بل قلده فيه مقلِّدون.
(٣) (١/ ١٥٩ ـ ١٦٥).

اثنان وستون سنة. احسبوا كم يومًا فيها، واضربوها بمئة، تعرفوا كم صفحة قرأت. أقرأ في كل موضوع، حتى في الموضوعات العلمية...».

وله في «**الذكريات**»[1] ـ أيضًا ـ حديث عن قراءته ومقدارها، مع اشتغاله بالقضاء في دمشق (كل يوم ثلاثون قضية) مع الإشراف على مجالس التحكيم، والعمل رئيسًا لثلاثة مجالس: الأوقاف، والأيتام، والمجلس الأعلى للكليَّات الشرعية، مع إلقاء دروس في الكلية، والثانوية للبنين والبنات، وكان إلى جانب ذلك خطيب جمعة، ومحاضرًا في النوادي، وله أحاديث في الإذاعة، وكتابة يومية في إحدى الجرائد. كان يصنع هذا كله!

ومع ذلك كان يقرأ كل يوم مئتين أو ثلاثمئة صفحة، قال: «وأنا مستمر على ذلك من يوم تعلمت القراءة، وأنا صغير، أي: من نحو سبعين سنة إلا قليلًا، أصرف فضل وقتي كله في القراءة».

---

(١) (٦/٢٦٧ ـ ٢٦٩).

العلامة المتفنّن بكر بن عبد الله أبو زيد (١٤٢٩)

كان شيخنا رحمه الله تعالى أعجوبةً في المحافظة على الوقت، والانجماع عن الناس، والانكباب على المطالعة، فلم يكن له شغل بعد أداء وظائفه إلا منادمة الكتاب ومثافنة الأسفار، وتقييد الفوائد، وتصنيف الكتب، وقد جالسته طويلًا فما رأيت حديثًا ألذّ إليه من الحديث عن الكتب، وعنده من خبرها ما يملأ الجراب، وقد كان جمع في أخبارها سِفْرًا وسَمَه بـ«**خبر الكتاب**».

ولو ذهبتُ أستقصي أخبارَ علماء هذا القرن المنصرم لجاء كتابًا برأْسِه! لكن حسبي هنا ما ذكرت، وكفى به عبرةً لمعْتَبِر، ومن أراد التوسُّع فليراجع تراجم أهل هذا القرن وهي كثيرة[1].

---

(١) مثل: «المعاصرون» لمحمد كُرْدْ عْلي، و«نزهة الخواطر» المجلد الثامن، لعبد الحي الحسني، و«الأعلام» للزركلي تراجم المتأخرين، و«ذيول الأعلام»، و«علماء ومفكرون عرفتهم» للمَجْذوب.

الفصل الرابع

قراءة المطوَّلات في مجالسَ معدودات

كان من عادة العلماء عَقْد مجالس لقراءة المطوَّلات على اختلاف الفنون، وكان لكتب الحديث المسندة القدح المعلّى، فكان الناسُ يأخذونها عن مؤلِّفيها أو عمن اتصلت بهم روايتها، بالسَّماع لجميعها تارة، أو بسماع شيءٍ منها، والإجازة بباقيها، أو بالإجازة لجميعها.

وتناقصَ عَقْدُ تلك المجالسِ وإسماع المطوَّلات طردًا مع تأخُّر الزمن لعوامل كثيرة، وانْحَسَرَ نوع الكتب المقروءة في كتب الحديث، خاصَّة المشهورة منها، كالكتب الستة و«**الموطأ**»، أو لكتب بعض مشاهير المؤلِّفين.

وهذه المجالس قد تطُوْل وقد تَقْصُر بحسب الغرض من القراءة وتفرُّغ الشيخ، واستعداد الطالب، وموضوع الكتاب[1].

---

(١) ففي «ثَبَت الفُلّاني» (ص١٩) أنهم قرأوا «الموطأ» باستحضارِ ومراجعةِ المنتقى، والاستذكار، والقَبَس، وشرح الزرقاني، وغيرها. وفيه (ص٣٥) أنهم قرأوا «البخاري» باستحضارِ ومراجعةِ: فتح الباري، وشرح ابن بطَّال، وشرح الكرماني، والمشارق، وإرشاد الساري وغيرها.

ولا شك أن قراءة هذه المطوَّلات في مجالسَ معدودة يتطلَّب عددًا من الصفات في الشيخ والطالب، من الخبرة بالكتاب المقروء، وشدة التيَقُّظ، وفصاحة اللسان، وسرعة القراءة، وقبل ذلك وبعده = الرغبة الأكيدة، والهمة العالية، والصبر الجميل. فمن تحلّى بذلك كلِّه، لانَ له الحديدُ، وسَهُل عليه الصعبُ، «**فإن العزيمةَ والمحبةَ تُذْهِبُ المشقَّةَ، وتُطِيبُ السيرَ**»[(١)].

وهذا سَرْد ما وقفت عليه من ذلك:

الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣)

قراءة صحيح البخاري في ثلاثة مجالس

قال الخطيب في «**تاريخ بغداد**»[(٢)] في ترجمة إسماعيل بن أحمد بن عبد الله الضرير الحِيْري (ت ٤٣٠) أنه خاطبه «**في قراءة كتاب «الصحيح»** ـ وكان سَمِعَه من الكُشْمِيْهَني[(٣)]

---

(١) العبارة بين القوسين لابن القيم في «الفوائد» (ص ٢٥٥).

(٢) (٦/ ٣١٤).

(٣) «كُشْمِيْهَن» إحدى قرى مَرْو، ضبطها السمعاني في «الأنساب»: (٥/ ٧٥) بكسر الميم، وفي «معجم البلدان» لياقوت: (٤/ ٤٦٣) بفتح الميم.

عن الفَرَبْري[١] ـ فأجابني إلى ذلك، فقرأتُ جميعَه عليه في ثلاثة مجالس، اثنان منها في ليلتين، كنتُ أبتدئ بالقراءة وقتَ صلاةِ المغرب، وأقطعها عند صلاة الفجر.

وقبل أن أقرأ المجلس الثالث عبَر الشيخُ إلى الجانب الشرقي مع القافلة ونزلَ الجزيرةَ بسوقِ يحيى، فمضيتُ إليه مع طائفةٍ من أصحابنا ـ كانوا حضروا قراءتي عليه في الليلتين الماضيتين ـ وقرأتُ عليه في الجزيرة من ضَحْوَةِ النهار إلى المغرب، ثم من المغرب إلى وقتِ طلوع الفجر، ففرغتُ من الكتاب، ورحلَ[٢] الشيخُ في صبيحة تلك الليلة مع القافلة» اهـ.

أقول: فلله تلك الهمم ما أسمقها وأعلاها! فهل سمعتم بمثل هذه الهمم والعزائم؟! فاليومُ الثالث جميعُه في القراءة (من ضَحْوةٍ إلى المغرب، ومن المغرب إلى الفجر)، فبمثل هذه الهمة بلغ الخطيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى ما بلغ، حتى دُعي بـ«**حافظ المشرق**»، وصار بمثل هذه الهمة عمدة المحدثين ومعوّلهم، بل صاروا عِيالًا على كتبه كما قال الحافظ ابنُ نقطة[٣].

---

(١) راوية البخاري، وفاؤه فيها الوجهان الفتح والكسر.

(٢) وكان مرتحلاً من نَيسابور إلى مكة، مصطحبًا معه كتبه ـ وكانت وقر بعير ـ.

(٣) «التقييد لرواة السنن والمسانيد»: (١/ ١٧٠).

ما قيل حول هذه القصة:

قال الحافظ الذهبي في «**السِّير**»[١] ـ معلِّقًا ـ: «قلت: هذه والله القراءةُ التي لم يُسْمَع قطُّ بأسْرَعَ منها».

وقال ـ أيضًا ـ في «**تاريخ الإسلام**»[٢]: «وهذا شيءٌ لا أعلمُ أحدًا في زماننا يَسْتَطيعُه».

وفي «**الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر**»[٣] للسخاوي، أنه سأل شيخه ـ أي ابن حجر ـ «هل وقعَ لكم استيفاءُ يومٍ في القراءة؟ (يعني: مثل ما وقع للخطيب) فقال: لا، ولكن قراءتي «الصحيح» في عشرة مجالس لو كانت متواليةً لنقصت عن هذه الأيام، ولكن أين الثريَّا من الثرى، فإنّ الخطيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ قراءته في غايةٍ من الصِّحة والجَوْدة والإفادة وإبلاغ السَّامعين» اهـ.

وسيأتي استيفاء ما وقع للحافظ ابن حجر من ذلك، وهو عجيب!

---

(١) (١٨/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠).

(٢) وَفَيَات (٤٦٣)، (ص ٩٩).

(٣) (١/ ١٠٤).

قراءة «صحيح البخاري» في خمسة أيام

قال الذهبي في «**تذكرة الحفاظ**»[1] نقلاً عن أبي سعدٍ السمعاني: «كان الخطيب حجَّةً، حسن الخط، كثير الضبط، فصيحًا، خُتِمَ به الحفَّاظ، وقرأ بمكة على كريمة[2] «الصحيحَ» في خمسة أيامٍ» اهـ.

عبد الله بن سعيد بن لُبَّاج الأموي (ت ٤٣٦)

إقراء مسلم في أسبوع

جاور ابنُ لُبَّاج بمكةَ سنين طويلة، واختصَّ بصحبة أبي ذر عبد بن أحمد الهروي ـ راوي الصحيح ـ وأكثر عنه، ثم رجعَ إلى الأندلس.

قال ابن بَشْكُوَال في «**الصِّلَة**»[3]: «ولحق بقرطبة... سنة ثلاثٍ وثلاثين وأربع مئة، فقرئ عليه «مسندُ مسلم بن الحجاج الصحيحُ»

---

(١) (٣/ ١١٣٨)، و«تاريخ الإسلام»: وفيات (٤٦٣)، (ص ٩٢)، و«الوافي بالوَفَيَات»: (٧/ ١٩٢).

(٢) هي: كريمة بنت أحمد المروزيَّة (ت ٤٦٣) ـ وهي سنة موت الخطيب ـ، سمعت «صحيح البخاري» من الكُشْمِيْهنيِّ، وكانت عالمةً فاضلةً مُتَثَبِّتةً، بلغ عمرها مئة سنة، ماتت ولم تتزوَّج. انظر: «المنتظم»: (١٦/ ١٣٥ ـ ١٣٦)، و«السِّير»: (١٨/ ٢٣٣ ـ ٢٣٥).

(٣) (١/ ٢٦٥).

في نحو جُمعة، بجامع قرطبة في موعِدَين طويلَيْن حَفِيلَين، كل يوم موعد غدوة، وموعد عَشيَّة» اهـ.

المؤْتَمن السَّاجي (ت ٥٠٧)

قراءة «المحدِّث الفاصل» في مجلس

قال الذهبي في «**السير**»[١]: «قال السِّلَفيّ: كان المؤتمنُ لا تُمَلُّ قراءتُه، قرأ لنا على ابن الطيوري كتابَ «الفاصل»[٢] للرَّامَهرمزي في مجلسٍ».

طلحة بن مظفَّر العَلْثي(٣) الحنبلي (ت ٥٩٣)

قراءة «صحيح مسلم» في ثلاثة مجالس

جاء في ترجمته في «**الذيل على طبقات الحنابلة**»[٤]

---

(١) (٣١٠/١٩).

(٢) اسمه: «المحدِّث الفاصل بين الراوي والواعي» للرَّامهُرْمُزِي (نحو ٣٦٠)، طبع بتحقيق محمد عجاج الخطيب في (٤٦٥) صفحة، وهو أول كتاب مفرد في علوم الحديث.

(٣) بفتح المهملة وسكون اللام، قيَّده المنذري في «التكْمِلة لوفيات النقلَة»: (٢٩٥/١)، وعنه ابنُ رجب.

(٤) (٣٩٠/١).

و«طبقات المفسرين»[١]: أنه قرأ «صحيحَ مسلم» في ثلاثةِ مجالس.

وكان طلحةُ بن مظفَّر عالمًا متفنِّنًا في علومٍ كثيرة زاهدًا وَرِعًا، وصَفَه الحافظ المنذري بحُسْن القراءة وفصاحتها، فمن ذلك أنه كان يقرأ كتاب «الجمهرة» لابن دُرَيْد على ابن القصَّار، فمِنْ سرعة قراءته وفصاحتها قال ابنُ القصَّار: هذا طلحةُ يحفظ هذا الكتاب؟! قالوا: لا.

العِزُّ بن عبد السلام (ت ٦٦٠)

قراءة «نِهاية المَطْلَب»[٢] في ثلاثة أيام

(١) (١/٢٦٦).

(٢) «نِهاية المطلب في دِراية المذهب» في فقه الشافعيَّة لإمام الحرمين الجويني (٤٧٨)، قال ابن خلكان في «الوفيات»: (٣/١٦٨): «لم يؤلَّف في الإسلام مثله»، ومثله قال عبد الغافر الفارسي في «السِّياق لتاريخ نَيْسابور» نقله التاج السبكي في «طبقاته»: (٥/ ١٧٧ ـ ١٧٨) ولم أجده في مخطوطة «السياق»: (ق/٤٨ب) في ترجمة الجويني. واعتدل السُّبكيُّ فقال: «لم يُصنَّف في المذهب مثلُها فيما أجزمُ به» اهـ «الطبقات»: (٥/ ١٧١).
وهو كتاب كبير، ذكر في «كشف الظنون» (ص ١٩٩٠) عن ابن النجار: أنه يكون في أربعين مجلدًا، (وقيل: أقل من ذلك، ولعل الاختلاف من أجل تفاوت النُّسَّاخ). ومختصره في سبعة، لابن أبي عَصْرون اليمني (٥٨٥). =

قال ابن فَهْد في «**لحظ الألحاظ**»[١]: «**قال شيخنا الحافظُ برهانُ الدين (أي: الحلبي ت ٨٤١): وحُكيَ لي أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام كان يخرج إلى المسجد يوم الأربعاء ومعه «نهاية إمام الحرمين»**، فيمكث بالمسجد يوم الأربعاء ويوم الخميس ويوم الجمعة إلى قُبيل الصلاة، فينظر في هذا الوقت «**النهايةَ**».

فاسْتَبْعَد هذا بعضُ العلماء، «فقال الشيخ سِراج الدين البُلقيني: ولا أستبعد، لأن الشيخ عز الدين لا يُشْكِل عليه منها شيءٌ، ولا يحتاج إلى أن يتأمَّل منها إلا شيئًا قليلًا، أو ما هذا معناه...» اهـ.

ابن الأبَّار (ت ٦٥٨)

قراءة «مسلم» في ستة أيام

ذكر الذهبي في «**سير أعلام النبلاء**»[٢] في ترجمة المحدِّث

= وقد أخذ الأستاذ عبد العظيم الديب رَحِمَهُ اللهُ (وهو خبير بالجويني) على عاتقه مؤنَةَ إخراج هذا الكتاب، وذلك من نحو عقدين ثم طبع أخيرًا طبعة متقنة فاخرة في واحدٍ وعشرين مجلدًا بتحقيقه عن وزارة الأوقاف بقطر ودار المنهاج.

(١) (ص ٢٠١).

(٢) (٢١/ ٢٥٣).

المعمَّر أبي محمد عبد الله بن محمد الحَجْري الأندلسي (ت ٥٩١) أن الحافظ أبا عبد الله بن الأبَّار[١] (ت ٦٥٨) قرأ عليه «**صحيحَ مسلم**» في ستة أيام.

شيخ الإسلام ابن تيميَّة (ت ٧٢٨)

قراءة «الغَيْلانيات»[٢] في مجلسٍ واحد

قال تلميذه الحافظ ابن عبد الهادي (ت ٧٤٤) في «**مختصر طبقات علماء الحديث**»[٣] ـ وهو يُعدِّد مسموعات ومقروءات شيخه ـ: «وقرأ بنفسه الكثير، ولازم السماع مُدَّةَ سِنين، وقرأ «الغَيْلانيات» في مجلسٍ» اهـ.

---

(١) ترجمته في «عنوان الدراية» (ص ٣٠٩) للغبريني، و«السير»: (٢٣/ ٣٣٦).

(٢) «الغيلانيات» هي تلك الأجزاء الأحد عشر، المسموعة لأبي طالب محمد بن محمد بن إبراهيم بن غَيْلان (ت ٤٤٠) من حديث أبي بكر محمد بن عبد الله بن إبراهيم الشافعي (ت ٣٥٤) تخريج الحافظ أبي الحسن الدارقطني (ت ٣٨٥)، وهي من أجود الأحاديث وأعلاها، وعدد أحاديثها نحو ألف ومئتي حديث.
وقد طُبعت «الغيلانيات» ثلاث طبعات مختلفة خِلال سنتين!! أجودها طبعة دار ابن الجوزي.

(٣) (٤/ ٢٨١ ـ ٢٨٢)، و«الجامع لسيرة شيخ الإسلام» (ص ١٨٨) لكاتبه بالاشتراك مع أخي الأستاذ عُزَير شمس.

وقد وصف ابنُ عبد الهادي شيخَ الإسلام ابن تيميَّة بصفاتٍ تدل على ما بلغه هذا الإمام من محبة العلم والانكباب على تحصيله فقال: «**لا تكادُ نفسُه تشبَعُ من العِلم، ولا تَرْوى من المطالعة، ولا تَـمَلُّ من الاشْتِغال، ولا تكلُّ من البحث**» اهـ.

وتقدم شيءٌ من خبره من كلام تلاميذه وغيرهم (ص٢٦، ٤٣، ٤٤ ـ ٤٥). رحم الله الجميع رحمة واسعة وأسكنهم فسيح جنَّاته.

الحافظ القاسم البِرزالي (ت٧٣٩)

أما هذا الحافظ فهو عجبٌ من العجب في التوفّر على القراءة والعلم والسماع، فقد قرأ آلاف الكتب على العلماء في البلدان المختلفة، واستكثر من الشيوخ حتى بلغ عدد شيوخه أكثر من ثلاثة آلاف شيخ[1]، ولنذكر طائفة يسيرةً من قراءاته[2]:

- فقد قرأ على بهاء الدين ابن عساكر (ت٧٢٣) خمس مئة وخمسين جزءًا، وثلاثة وعشرين مجلدًا.
- وقرأ على جمال الدين الظاهري (ت٦٩٦) أكثر من مئة جزء حديثي.

---

(١) أكثر من رأيته عدد شيوخٍ هو الحافظ أبو سعد ابن السمعاني، فقد ذكروا أن عدد شيوخه بلغ سبعة آلاف شيخ. انظر «السير»: (٢٠/ ٤٠٠).

(٢) انظر «مقدمة المقتفى على كتاب الروضتين» (ص٣٠ ـ ٤٠).

• وحمل عن عز الدين الفاروثي (ت ٦٩٤) نحوًا من ٨٠ جزءًا.

• وقرأ «**مسند الدارمي**» أكثر من عشر مرات على شيخه ابن الشحنة.

• وقرأ «**مسند عبد بن حُميد**» عليه أيضًا أكثر من عشر مرات.

• وقرأ صحيحي البخاري ومسلم مرارًا كثيرة.

ومما نستطرف ذكره هنا عن هذا الحافظ أنه اعتنى بأبنائه، فحرص على إسماعهم العلمَ والحديثَ، وإحضارهم حِلَق الشيوخ، فبرزوا في سنٍّ يسيرة، ونبغ منهم: ابنه محمد، فقد وصفه الذهبي بـ«**الفقيه المقرئ**» مع أنه توفي شابًّا لم يبلغ العشرين[1].

ونبغت ابنتُه فاطمة، حيث أسمعها أبوها من مئة وخمسة وثمانين شيخًا، ونقل ابن الجزري عن والدها أنه قال: «سمعت صحيح البخاري على ستّ الوزراء بنت المنجّا، وحفظت من الكتاب العزيز، وتعلمت الخطَّ وكتبَتْ رَبعة ظريفة، ونسخت كتاب الأحكام لابن تيمية (الجد)، وصحيح البخاري، وكمّلته قبل موتها بأيام يسيرة. قال الصفدي: ونُسْختها هذه بدمشق من النسخ التي يعتمد عليها وينقل منها».

(١) انظر «المعجم المختص» (ص٢٥٣)، و «الدرر الكامنة»: (٤/ ١٤٢)، وذكرته في كتابي «العلماء الذين لم يتجاوزوا سن الأشد» (ص١٢٧).

إلا أنه لم يمتّع بها أيضًا إذ توفيت عن أربعة وعشرين عامًا رحمها الله وغفر لها ولأبيها[١].

الحافظ أبو الحجاج المِزِّي (ت ٧٤٢)

وهذا الحافظ أبو الحجاج المِزِّي (ت ٧٤٢) يقرأ «**المعجم الكبير**» للطبراني (وهو مطبوع في أكثر من عشرين مجلدًا) بحضور الحافظ البرزالي في ستين مجلسًا[٢].

الحافظ شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨)

قراءة «سيرة ابن هشام» في (٦) أيام

ذكر الإمام الذهبي عن نفسه[٣]: أنه قرأ «**سيرة ابن هشام**» على أبي المعالي الأبَرْقوهي[٤] في ستةِ أيامٍ فقط.

---

(١) انظر «الوافي بالوفيات»: (٢٤/ ١٦٢).

(٢) انظر «معجم سماعات البرزالي»: (ق/ ٢٣٢أ) نسخة الظاهرية بخط البرزالي.

(٣) في «تاريخ الإسلام»: (ق/ ١٣٥) نقلاً عن «الذهبي ومنهجه في تاريخ الإسلام» (ص ٩٤) للدكتور بشار عوَّاد.

(٤) ترجمته في «معجم الشيوخ»: (١/ ٣٧) للذهبي، و«أعيان العصر»: (١/ ١٧١)، وغيرها.

سراج الدين ابن الملقِّن (ت ٨٠٤)

قراءة المجلدين في الأحكام في يومٍ واحد

وفي «**لحظ الألحاظ**» بعد ـ حكاية العزّ ابن عبد السلام المتقدمة ـ قال البرهان الحلبي: فذكرتُ هذه الحِكاية لشيخنا سراج الدين ابن الملقِّن، فقال لي عقيب ذلك: أنا نظرتُ مجلَّدين من «**الأحكام**»(١) للمحبِّ الطبري في يومٍ واحدٍ» اهـ.

سراج الدين البُلْقيني (ت ٨٠٥)

قراءة المجلد من كتب الفقه في يومٍ

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه «**المجْمَع المؤسِّس**»(٢) نقلاً عن البرهان الحلبي إنه قال: سمعتُه يقول ـ أي: البُلقيني ـ ربما طالعتُ المجلَّد كاملًا في اليوم الواحد من كتب الفقه.

---

(١) كتاب في الحديث، قال السبكي في «طبقاته»: (٨/ ١٩): «الكتاب المشهور المبسوط، دلَّ على فضلٍ كبير» اهـ.

(٢) (٢/ ٢٩٧)، و«لحظ الألحاظ» (ص ٢٠٢) متَّصِل بخبر العِزّ بن عبد السلام السَّالف.

الحافظ زين الدين العِراقي (ت ٨٠٦)

قراءة «صحيح مسلم» في ستةِ مجالس

قال الحافظ تقي الدين الفاسي في «**ذيل التقييد**»[(١)]: «وسمع ـ أي العراقي ـ «صحيحَ مسلم» بقراءته[(٢)] في سِتة مجالس، على محمد بن إسماعيل بن الخبَّاز بدمشق».

ونحوه في «**لحظ الألحاظ**»[(٣)] لابن فهد، وزاد: «في ستة مجالس متوالية، قرأ في آخر مجلسٍ منها أكثر من ثلث الكتاب، وذلك بحضور الحافظ زين الدين ابن رَجَب[(٤)]، وهو معارض بنسخته» اهـ.

وابنُ الخبَّاز (ت ٧٥٦) هذا قال الحافظ ابن حجر في «**الدرر الكامنة**»[(٥)] نقلاً عن العِراقي قال: إنه كان مُسْنِد الآفاق في زمانه، وتفرَّد برواية مسلم بالسماع المتصل... وكان صبورًا

---

(١) (٣/ ٩)، (١/ ١٧٠).

(٢) أي: العِراقي نفسه.

(٣) (ص ٢٢٣).

(٤) وكان سِنُّ الحافظ ابن رجب آنذاك دون العشرين، لأنه مولود سنة (٧٣٦)، وتوفي ابن الخباز سنة (٧٥٦) فيكون عمر ابن رجب حين وفاته عشرين سنة، ولا شك أن القراءة كانت قبل ذلك.

(٥) (٣/ ٣٨٤). وفي نسخة «يتكسّب بالنسخ».

على السَّماع، يتكسَّب بالنسـج، قال: فكنَّا نقرأ عليه وهو يعمل في منزله من بُكرةٍ إلى العصر.

قراءة «المسند» في ثلاثين مجلسًا

جـاءَ ـ أيضًـا ـ فـي «**ذيـل التقييـد**»[١] أن الحافـظ العراقي قرأ «**مسند الإمام أحمد**» على ابن الخبَّاز ـ المتقدِّم ـ في ثلاثين مِيْعَادًا.

مجد الدين الفيروزابادي (ت ٨١٧)

قراءة «صحيح مسلم» في أربعة عشر مجلسًا

قـال السـخاوي فـي «**الضـوء اللامـع**»[٢] في ترجمـة مجد الدين: «وقرأ «مسـلمًا» على البياني بالمسجد الأقصى في أربعة عشر مجلسًا».

قراءة «صحيح مسلم» في ثلاثة أيام

ذكر السخاوي في «**الضوء اللامع**»[٣]، و«**الجواهر والدرر**»[٤]،

---

(١) (٣/٩)، (١/ ١٧٠).
(٢) (١٠/ ٨٠).
(٣) (١٠/ ٨٠).
(٤) (١/ ١٠٣ ـ ١٠٤).

والمَقَّري فـي «**أزهار الريـاض**»[١]: أن الفيروزابـادي قرأ «**صحيح مسـلم**» بدمشـق بين بابَي النَّصْر والفَـرَج، تُجَاه نَعْـل[٢] النبي ﷺ على شيخه ناصر الدين أبي عبد الله محمد بن جَهْبَل[٣]، في ثلاثة أيامٍ، وقال ذاكرًا ذاك مُفْتـخرًا به:

قـرأتُ بحمـدِ اللهِ «**جامعَ مسـلمٍ**»
بجوفِ دمشقَ الشامِ جوفًا لإسلامِ
على ناصرِ الدين الإمامِ ابنِ جَهْبَلٍ
بحضـرةِ حُفَّـاظٍ مشـاهيرَ أعـلامِ
وتـمَّ بـتـوفـيـقِ الإلـهِ بـفـضْلِـهِ
قـراءةَ ضبـطٍ فـي ثلاثـةِ أيَّـامِ[٤]

---

(١) (٣/ ٤٨).

(٢) تحرَّفت في «أزهار الرياض» إلى: «بَغْل»! ولأبي اليُمن بن عساكر جُزء في صِفَة النعل النبوية، وأنشـأ قصيدة فيه حين شـاهدها، انظـر: «مِلء العَيْبة»: (٥/ ٢١٨ ـ ٢١٩) لابن رُشـيد، و«فتح المتعال في صفة النِّعال» للمقَّري، و«التبرُّك» (ص ٣٥٢) للجديع في ثبوت النعل ونحوها.

(٣) المتوفي سـنة (٧٦٤)، له ترجمة في «ذيـل التقييـد»: (١/ ١٧٧)، و«الدرر الكامنـة»: (٣/ ٣٩٢). وتحرَّفت «ابـن جَهْبل» في «الجواهـر والدرر» إلى: «ابن جهيل» ـ بالياء ـ.

(٤) هذه الأبيات الثلاثة جعلها محقِّقو «الجواهـر ـ بطبعتيه» نثرًا، ولم يتفطنوا لكونها شِعرًا! وهي مخالفة لما هنا في بعض العبارات.

وقال المَقَّري عن هذه القراءة السَّريعة مع الضبط: «**[إنها] من أغرب ما منحَ الله تعالى المجدَ مؤلف «القاموس»**! فسُبحانَ المانح الذي يؤتي فضله من يشاء!».

واعتبر السخاوي أن ما وقع لشيخه الحافظِ ابن حجر من قراءة «**صحيح مسلم**» في أربعة أيام سوى مجلس الختم أَجَلّ مما وقع للفيروزابادي. وسيأتي استيفاء ذلك عند الكلام على الحافظ ابن حجر ومقروءاته، وها هي:

الحافظ ابن حَجَر العسقلاني (ت ٨٥٢)

وما وقع للحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من ذلك عجيب! وهو يدلّ على همة عالية، وجَلَد غير معهود، وتفرُّغ تام، يحف ذلك تيسير إلهي، وتوفيق ربَّاني.

وقد وصف تقيُّ الدين الفاسي ـ صاحبُ ابنِ حجر ورفيقه ـ قراءَتَه بأنها سريعة[١]، وكذا وصفها السخاوي بالسرعة والحُسْن[٢]، وشبَّهها بقراءة الخطيب.

---

(١) «ذيل التقييد»: (٢/ ١١٩)، ووقعت هذه اللفظة «سريعة» في «عُنوان الزَّمان في تراجم الشيوخ والأقران»: (ق/ ٢٣ أ ـ كوبريلي) للبقاعي: «بديع القراءة»، وهو ينقل عن الفاسيِّ، فلا أظن ذلك إلا تصحيفًا.

(٢) «الجواهر والدرر»: (١/ ١٠٣ ـ ١٠٥).

قراءة «المسند» في ثلاثةٍ وخمسين مجلسًا

قال الحافظ في كتابه: «**المَجْمَع المؤسِّس للمُعْجم المُفَهْرِس**»[(١)] في ترجمة شيخه عبد الله بن عمر بن علي الهندي أبي المعالي (ت ٨٠٧): «**وكان صبورًا على إسماع الحديث، لا يملُّ ولا ينعس ولا يتضجَّر**[(٢)]...

قرأت عليه «مُسْند أحمد» جميعه بزياداته[(٣)]... وكَمُلت قراءتي عليه للمسند كله في ثلاثةٍ وخمسين مجلسًا» اهـ.

وقال في «**إنباء الغمر**»[(٤)]: «**قرأتُ عليه «مسند أحمد»** في مدةٍ يسيرة في مجالسَ طوال، وكان لا يضجر... وفي الجملة،

---

(١) (٢/ ٢٧، ٣٢).

(٢) ذكر الحافظ في ترجمته «المجمع»: (٢/ ٢٨) أنه مرض مرة، قال: فصعدنا إلى غرفته عائدين، فأذنَ لنا في القراءة، فقرأتُ عليه من «المسند» فمرَّ في الحال حديث أبي سعيد ﷺ في رُقية جبريل، فوضعتُ يدي عليه في حالِ القراءةِ ونويتُ رُقيته، فاتفقَ أنه شُفِي، حتى نزلَ إلينا في الميعاد الثاني مُعَافى» اهـ.
أقول: فتأمَّل ـ رحمك الله ـ في احتمال الشيخ وتجلُّدِه، وحِرص التلميذ وفِطْنته، وتوفيق الله وعنايته.

(٣) أي: زيادات عبد الله بن الإمام أحمد، وقد طبعت مستقلة عن «المسند» في مجلد.

(٤) (٥/ ٢٤١).

لم يكن في شيوخ الرواية من شيوخنا أحسن أداءً ولا أصْغَى للحديث منه» اهـ.

قراءة «البخاري» في عشرة مجالس

قال السخاوي في «**الجواهر والدرر**»[١]: «**ومن الكتب الكِبار التي قرأها في مدةٍ لطيفة: «صحيح البخاري»**، حدَّثَ به الجماعةَ من لفظه بالخانِقاه البيبرسية في عشرة مجالس، كل مجلسٍ منها أربع ساعات» اهـ.

وذلك بعد سنة (٨٢٠).

ثم سأل السخاويُّ شيخَه: هل وقع له استيفاء يومٍ كاملٍ في القراءة، كما وقع للخطيب؟ فقال: لا، ولكن قراءتي «**الصحيح**» في عشرة مجالس، لو كانت متوالية لنَقَصت عن هذه الأيام، ولكن أين الثُّريا من الثَّرى؟! فإن الخطيبَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قراءته في غاية من الصحة والجودة والإفادة وإبلاغ السامعين. انتهى كلام الحافظ.

قال السخاوي: إنما استدركَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ جَرْيًا على عادتنا في التأدُّب وتواضُعًا، وإلا فقراءته ـ أيضًا ـ كانت كذلك،

---

(١) (١/١٠٤).

وهكذا كـان دأبه: هضْم نفسِه على جـاري عادة أهـل العلمِ والديـن[١].

قراءة «صحيح مسلم» في خمسة مجالس

قـال الحافـظ فـي «**المجمـع المؤسّـس**»[٢] فـي ترجمـة محمد بـن محمد بـن عبد اللطيف بـن الكُوَيْـك (ت ٨٢١): «**وقرأتُ عليه «صحيح مسلم»** في خمسة مجالس» اهـ.

وقال في «**إنباء الغمر**»[٣]: «**وقرأتُ عليه كثيرًا من المرويَّات بالإجازة والسـماع، من ذلك «صحيح مسلم»** في أربعة مجالس سِوى مجلس الخَتْم» اهـ.

وفَصَّـل السـخاوي صِفـة القـراءة ووقتهـا فقـال[٤]: وقـرأ «**صحيح مسـلم**»... في أربعة مجالس سِـوى مجلس الخَتْم[٥]،

(١) ثم ذكر حادثة تدلُّ على ما ذكر، فلتراجع.

(٢) (٢/ ٤٧٨)، وانظر: «ذيل التقييد»: (٢/ ١١٩)، و«عنوان الزمان»: (ق/ ٢٣ أ ـ كوبريلي) للبقاعي.

(٣) (٧/ ٣٤٢).

(٤) «الجواهر والدرر»: (١/ ١٠٣).

(٥) لطيفة: ذكر السـخاوي ـ في الكتـاب المتقـدِّم ـ لطيفةً وقعت يـوم الختم ـ ملخّصهـا ـ: أن الضابـط للقـراءة التمس مـن الحافظ ابـن حجر ـ وهو =

وذلك في نحو يومَيْن وشيء، فإنه كان الجلوس من بُكْرة النهار إلى الظهر...»، وكان ذلك سنة (٨١٣).

وعلى هذا الحِسَاب اعتبر السخاوي أن ما وقع لشيخه ابن حجر أجلّ مما وقع للفيروزابادي من قراءة «**صحيح مسلم**» في ثلاثة أيام على ابن جَهْبَل[١].

قراءة «السنن الكبرى» للنسائي في عشرة مجالس

قال السخاوي في «**الجواهر**»[٢]: «وكذا قرأ كتاب النسائي الكبير على الشَّرَف (ابن الكُوَيك) المذكور في عشرة مجالس، كلُّ مجلسٍ منها نحو أربع ساعات، وسمعه بقراءته الفضلاء والأئمة... وانتهى في يومِ عاشوراء سنة أربع عشرة وثمان مئة» اهـ.

= القارئ ـ أن يُعِيد بعض القراءة من أول الكتاب (لعله لِفَوْت وقع لبعضهم) فأجابه وشرع في القراءة. فكلما رام الوقوف، يقول له الضابط: وأيضًا... وهو يقرأ ـ وقد تعب ـ إلى أن مرَّ بقوله في الحديث: «والله لا أزيد على هذا ولا أنقص»، فاهتبلها وأغلق الكتاب وأقسم ـ أيضًا ـ ألا يزيد على هذا ولا ينقص.

(١) انظر ما تقدم (ص ٩٦ ـ ٩٧).

(٢) (١/ ١٠٤).

قراءة «السنن» لابن ماجه في أربعة مجالس

قال السخاوي في «**الجوهر**»[(١)] ـ أيضًا ـ: «[و] قد قرأ «السنن» لابن ماجه في أربعة مجالس» اهـ.

قراءة «المعجم الصغير» للطبراني في مجلس واحد

قال الحافظ في «**المجمع المؤسِّس**»[(٢)] في ترجمة عمر بن محمد بن أحمد البالِسِي ثم الصالحي (ت ٨٠٣): «**قرأتُ عليه الكثير... فمما قرأتُ عليه «المعجم الصغير»** للطبراني، قرأته عليه في مجلسٍ واحدٍ بين الظهر والعصر» اهـ.

وعدَّ السخاويُّ[(٣)] وابنُ فهدٍ هذه القراءة أسرعَ شيءٍ وقع للحافظ ابنِ حجر، ذلك أن هذا الكتاب يشتمل على نحوٍ من ألف وخمس مئة حديث، لأنه ـ أي الطبراني ـ خرَّج فيه عن ألف شيخٍ، عن كل شيخٍ حديثًا أو حديثين[(٤)].

وكانت هذه القراءة في رحلته الشامية.

---

(١) (١/ ١٠٣).

(٢) (٢/ ٣٢٤)، وانظر: «ذيل التقييد»: (٢/ ١١٩)، و«لحظ الألحاظ» (ص ٣٣٦).

(٣) «الجواهر والدرر»: (١/ ١٠٤).

(٤) إلا أن هذه المنحة الإلهية لم تَرُقْ لزاهد الكوثري (ت ١٣٧١)، فعدَّها محنةً وذمًّا! ولم يكتفِ بذلك، بل اتخذها سبيلًا للقدح في علوم الحافظ =

قراءة ألف جزءٍ حديثي، وكتابة (١٠) مجلدات في مئة يوم

قال البرهان البِقاعي في «**عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران**»[(١)] «سمعتُ شيخَنا صاحبَ الترجمة (أي: الحافظ ابن حجر) غيرَ مرَّة يقول: إنه أقام في دمشق إذ ذاك (أي: في رحلته الشامية)[(٢)] مئة يوم، فسمعَ بها نحو ألفِ

= ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ! وهذا من فَرْط تعصُّبه.

كضَرائِرِ الحسناءِ قُلْنَ لوجهِها حَسَدًا وبُغْضًا: إنَّه لَذَميمُ

فلو كان القارئ أو المقروء له تعلُّق بمذهبِ أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ، لعدَّه من الكرامات التي يُتَبَجَّحُ بها في المحافل والكتب!

وانظر ما أجاب به الأستاذ عبد الستار الشيخ بخصوص هذه القضية في كتابه: الحافظ ابن حجر العسقلاني أمير المؤمنين في الحديث» (ص٢٨٩ ـ ٢٩٠ الحاشية).

ولقد أتعبَ هذا الرجلُ العلماءَ بتتبُّع مخازِيْه، ونقض شبهاته ومباغِيْه، فجزاهم الله عن الإسلام خيرًا، وأرْبَى هذه الكتب: «كتاب التنكيل» للعلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (ت١٣٨٦) رَحِمَهُ اللَّهُ، فما هو إلا أن رأى «طليعته» حتى شَرِقَ به.

* فخرَّ صَريعًا لليدين وللفَمِ *

فكيف لو رآه بكامله؟! ولقد رآه أتباعُه من بَعْده، فما حاروا جوابًا!

(١) (ق/ ٢٠ أ ـ كوبريلي).

(٢) كان دخوله الشام في (٢١/ رمضان/ ٨٠٢) وخروجه منها في: (١/ محرم/ ٨٠٣) فكانت مدة إقامته بها مئة يوم. ووقع في «الجواهر» في تاريخ دخوله الشام: «حادي عشر»! وهو خطأ صوابه: «حادي عِشْري» فلو صح =

جزءٍ[١] حديثي، لو جُلِّدت لكانت تقارب مئة مجلد، وكتب فيها عشر مجلدات، منها: [أطراف][٢] المختارة».

قلت (البقاعي): هذا مع قضاءِ أشغاله، والتنقُّل في أحواله، وكتابةٍ بيِّنة وتطبيق[٣] ما طبقه من الأجزاء، وهذه كرامة لا شكَّ فيها، فالله تعالى ينفعنا به آمين» اهـ.

وذكر السخاوي في «**الجواهر والدرر**»[٤] خبرَ هذه الرِّحلة، وما وقعَ له فيها من قراءةٍ للكتب في أقصرِ مدَّة، ثم قال: «فمن هذه الكتب ما يكون مجلَّدةً ضخمة، ومنها ما يكون مجلَّدة لطيفة، فتكون نحو الثلاثين مجلدًا ضخمة، تكون نحو أربع مئة

= ما هو مثبت، لكانت مُدَّة بقائه بها مئة يوم وعشرة أيام، وهذا خلاف المنصوص عليه.

(١) قال الذهبي في «السير»: (٢٠/٥٥٨): «والجزء عشرون ورقة» اهـ. وقد يكون أقل أو أكثر، وانظر: «توثيقُ النصوصِ وضبطُها» (ص ٢٢٩).

(٢) تحرَّفت في النسخة الخطية إلى: «بطريق»! و«المختارة» لضياء الدين المقدسي (ت ٦٤٣). وهذا الكتاب الذي ألفه الحافظ غَرِق مع ما غَرِق من كتبه التي بخطه في رحلته الثانية إلى اليمن سنة (٨٠٦)، وكان مما غرق فيها: «أطراف المزي» و«أطراف مسند أحمد»، و«أطراف المختارة»، وترتيب مسندي عبد بن حميد والطيالسي. انظر: «الجواهر والدرر»: (١/ ٩٠).

(٣) المقصود: كتابة الطِباق.

(٤) (١/ ١٠١ ـ ١٠٢).

وخمسين جزءًا حديثيَّة، خارجًا عن الأجزاء الحديثية، وهي تزيد على هذا القَدْر.

هذا وقد علَّق رضي الله عنه في غضون هذه المدة بخطه، من الأجزاء الحديثية، والفوائد النثرية، والسماعات التي يُلحقها في تصانيفه، ونحوها: ثمان مجلدات فأكثر، وأطراف كتاب «المختارة» للحافظ ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي في مجلد ضخمٍ، لو لم يكن له عَمَلٌ في طول هذه المدَّة إلا هي، لكانت كافية في جلالته» اهـ.

الحافظ الدِّيَمِي (ت ٩٠٨)

قراءة «صحيح البخاري» في أربعة أيّام

قال السخاويُّ في «**الضوء اللامع**»[1] في ترجمة عثمان بن محمد أبي عَمْرو الدِّيَمِيّ الشافعي (ت ٩٠٨) لما عدّد مقروءاته

(١) (٥/ ١٤١)، إلا أن السخاويَّ علَّق على هذا بقوله: «وما حَمِدت منه هذا»!
أقول: لم يُفصِح عن السبب! ولعله لِمَا بينهما من المنافسة، ومن شعر السيوطي المشهور قوله:

قل للسخاوي إن تَعْروكَ مُشْكلةٌ ... علمي كبحرٍ مِنَ الأمواجِ مُلْتَطمِ
والحافظ الدِّيَمِي غيثُ الزمانِ فخذ ... غرفًا من البحرِ أو رشفًا من الدِّيَمِ

في رحلته المدنيَّة: «وقرأ وهو هناك «**الصحيح**»[1] بتمامِه في الروضة الشريفة في أربعة أيامٍ» اهـ.

العلَّامة القَسْطَلَّاني (ت ٩٢٣)

قراءة «صحيح البخاري» في خمسة مجالس

قال السخاوي في «**الضوء اللامع**»[2] في ترجمة أحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني صاحب: «**إرشاد الساري**» (ت ٩٢٣) عند تَعْداد مقروءاته: «وقرأ «**الصحيح**» بتمامه في خمسةِ مجالس على النَّشاوي» اهـ.

إبراهيم البِقاعي الحنبلي (ت ٩٣٥)

قراءة «صحيح البخاري» في ستة أيام و«مسلم» في خمسة

ذكر النجم الغَزِّي في «**الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة**»[3] في ترجمة إبراهيم البقاعي أنه قرأ على والده (البدر الغزي) البخاريَّ كاملًا في ستة أيام، سنة (٩٣٠)،

(١) أي: للبخاري، وهو المراد إذا أُطْلِق.
(٢) (٢/ ١٠٣)، وانظر: «البدر الطالع»: (١/ ١٠٢).
(٣) (٢/ ٧٦)، وانظر: «شذرات الذهب»: (٨/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).

و«**صحيح مسلم**» كاملًا في سنة إحدى وثلاثين في خمسة أيامٍ متفرِّقة ـ في عشرين يومًا ـ.

عبد العزيز ابن باز (ت ١٤٢٠)

وفي ترجمة الشيخ ابن باز المسمَّاة بـ«**الإنجاز**» أن أحد الطلبة قرأ على الشيخ «**سنن النسائي**» في سبعة وعشرين مجلسًا.

إلى هنا وأقول: لعلِّي قد أطلتُ فأمْلَلْتُ، وما زال في الوِفَاض الكثيرُ والكثيرُ، لكن فيما تقدم كفاية لمن ألقى السمع وهو شهيد، والإكثار لا ينفع العيون العُمي ولا الآذان الصُّمّ ولا القلوب الغُلْف!!

لكن لابدَّ لي هنا من الإشارة إلى كتابين اثنين[1] فيهما خَبَرُ ما لم أذكره هنا مما وقع للعلماء من ذلك.

الأول: كتاب «**فِهْرِس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**» للعلامة عبد الحي بن عبد الكبير

---

(١) ومباحث متفرقة في بعض الكتب، مثل: «معجم أبي علي الصدفي» (ص ٥٤، ١٩٠، ٢٤١)، و«الفضل المبين» (ص ٢١١ ـ ٢١٣)، و«قواعد التحديث» (ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣) كلاهما للقاسمي، و«خلاصة الأثر»: (١/ ٧٢ ـ ٧٣) للمحبّي.

الكتاني (ت ١٣٨٢): (٢/ ١٠٤٣ ـ ١٠٤٩) فقد ذكر من تلك الأخبار عددًا صالحًا (منه ما ذكرته ومنه ما لم أذكره) ثم قال في خاتمة بحثه:

«وجامع هذه الشَّذْرة محمد عبد الحي الكتاني، قرأ «صحيح البخاري» تدريسًا بعنزة القرويين وغيرها قراءةَ تحقيق وتدقيق في نحو خمسين مجلسًا، لم يدع شاذَّةً ولا فاذَّةً تتعلَّق بأبوابه ومحلّ الشاهد منها إلا أتى عليها، مع غير ذلك من اللطائف المستجادة، ولعلَّه أغرب وأعجب من كلٍّ ما سبق! والله خالق القُوَى والقدر!» اهـ.

الثاني: كتاب **«ذيل التقييد لرواة السنن والمسانيد»** للحافظ تقي الدين الفاسي (ت ٨٣٢) وهذه مواضعها: (١/ ١٥٦، ٢٢١، ٢٢٥، ٣٠٨)، (٢/ ٦٨، ٧٣، ١٣٤، ٢٢٦، ٢٦٩)، (٣/ ٤٨، ٦٩، ١٨٢، ٢٤٤، ٢٨٣، ٣٢٩).

الفصل الخامس

تَكْرار قراءة الكتاب الواحد المرات الكثيرة

تحدثنا في الفصل الثالث عن شغف العلماء بالكتب، وملازمتهم لقراءتها وإقرائها ليلهم مع نهارهم، في حِلّهم وترحالهم. وفي هذا الفصل نلقي الضوء على صورة أخرى من صور شغفهم بالكتب وتعلّقهم بها، وهي الانكباب والعكوف على قراءة كتبٍ بعينها، يتخذها العالم ديدنه وهجّيراه، فما إن ينتهي من استيفاء كتابٍ قراءةً، حتى يبدأ فيه من جديد، فيقرؤه مرَّةً بعد مرَّة، فهو كالحالِّ المُرْتَحِل.

وغَنِيٌّ عن الذِّكْر كم هو ثقيل على النفس أن يُعيدَ المرءُ كتابًا قرأه مرة واحدة! فكيف بقراءته مرَّات!!

ولذلك كان من وصايا الشيوخ(١): أنك إذا قرَأت كتابًا فلا تفكر في العودة إليه مرةً أُخرى، لأن هذا الشعور سيؤدِّي بك إلى التفريط في فوائد كثيرة، أملًا في استيفائها في القراءة الثانية.

---

(١) هذه وصيَّة الشيخ العلامة محمد بن عثمان الحنبلي (ت١٣٠٨) لتلميذه العلامة عبد القادر بن بدران، ذكرها في آخر كتابه «المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل» (ص٤٨٨). وهذه الوصية فيما أحسب متعلقة بالقراءة على الشيوخ.

وعلى كل حال، فالمسـألة تعود إلى اختلاف طِباع الناس، فمن تُقْبِل نفسُه على قراءةِ الكتاب الواحد مراتٍ، فَبِها، ومن لا، فليستوفِ غرضَه من الكتاب في أول مرة، مع أن مُعَاودة مطالعة الكتاب الواحد مرَّات ـ خاصة مع تباعد وقت القراءة ـ يُوْقفك على مسائل وفوائد لم تكن لتقف عليها في أوَّل قراءتك، وذلك لتوسُّـع مـداركك وزيادة فهمك، وهـذا أمر مجرَّب، وسـيأتيك خبر المزني مع «**الرسالة**» للشافعي.

وقد قيـل[1]: إن قـراءة كتابٍ واحـدٍ ثلاث مـرات أنفع من قراءة ثلاثة كتب في الموضوع نفسه.

وسأذكر هنا ما وقع لنا خبرُه من العلماء الذين عكفوا على قـراءة كتبٍ معيَّنة وأُولعـوا بها، فأصبحت سـميرهم وهجِّيراهم لا يُفارقون قراءتها حتى استظهرها بعضُهم أو كاد.

قراءة البخاري (٧٠٠) مرة

جاء في ترجمة الإمام غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن تمام بـن عَطيَّـة المحاربـي (ت٥١٨) مـن كتـاب «**الغُنيـة**»[2]

(١) قاله العقاد في كتاب «أنا».
(٢) (ص ٢٥٥).

للقاضي عياض، و«**الصلة**»[1] لابن بَشْكُوال قال: «**قرأتُ بخطّ بعض أصحابنا: أنه سمع أبا بكر بن عطية يذكر أنه كرَّر «صحيح البخاري»** سبع مئة مرَّة» اهـ.

قراءة البخاري (١٥٠) مرَّة

وفي «**إنباء الغمر**»[2] في ترجمة سليمان بن إبراهيم بن عمر نفيس الدين العلوي اليمني (ت ٨٢٥) قال: «**ذكر لي أنه مَرَّ على «صحيح البخاري»** مئة وخمسين مرَّة، ما بين قراءةٍ وسماعٍ وإسماعٍ ومُقابلة...» اهـ.

وجاء في «**فهرس الفهارس**»[3] نقلاً عن «**طبقات الخواص**» للشرجي: أنه أتى على الصحيح (٣٨٠) مرة، قراءة وإقراء وإسماعًا.

وجاء في «**البدر الطالع**»[4] أنه قرأ البخاري أكثر من خمسين مرة. فالظاهر أن الشوكاني لم يعدّ السماع والإسماع والمقابلة.

---

(١) (٢/٤٣٣)، والنص منه.

(٢) (٧/٤٧٤)، و«المجمع المؤسس»: (٣/١١٦).

(٣) (٢/١٠٤٤).

(٤) (١/٢٦٥).

قرأ البخاري أكثر من (٤٠) مرة

وفي ترجمة أحمد بن عثمان بن محمد بن الكُلُوتاتي (ت ٨٣٥) من «المجمع المؤسِّس»[(١)] قال: «**ثم حُبِّبَ إليه طلب الحديث، فابتدأ في القراءة من سنة تسع وسبعين (وسبع مئة) وهلُمَّ جرًّا ما فَتَرَ ولاوَنَا، فلعله قرأ «البخاري» أكثر من أربعين مرَّة**».

قرأ البخاريَّ أكثر من (١٠٠) مرة

وفي ترجمة أبي بكر بن محمد بن عبد الله بن مقبل القاهري الحنفي المعروف بالتَّاجر (ت ٨٠٥) من «**الضوء اللامع**»[(٢)]: «قال البرهان الحلبي ـ تلميذُه ـ: إنه أخبره أنه قرأ «صحيح البخاري» إلى سنة ثمانين ـ أي وسبع مئة ـ خمسًا وتسعين مرة، وقرأه بعد ذلك مرارًا كثيرًا» اهـ.

قرأ البخاري على ٣٠ شيخًا

ففي «**دُرَّة الحِجال**»[(٣)] لابن القاضي المكناسي، في ترجمة عثمان بن محمد بن عثمان التوْزَري (ت ٧١٣) أنه قرأ البخاري على أزيد من ثلاثين رجلًا من أصحاب البوصيري.

---

(١) (٣/٥١).

(٢) (١١/٧٩).

(٣) (٣/٢٠٩).

قرأ البخاري على شيخ واحد أكْثر من (٢٠) مرة

وفي «**إنباء الغمر**»[١] في ترجمة أسعد بن محمد بن محمود الشيرازي (ت ٨٠٣) أنه قرأ «**صحيح البخاري**» على شمس الدين الكرماني أكثر من عشرين مرَّة.

قرأ البخاري أكثر من (٦٠) مرة، ومسلمًا أكثر من (٢٠) مرة

وفي ترجمة البرهان الحلبي (ت ٨٤٠) من «**الضوء اللامع**»[٢]: أنه قرأ البخاريَّ أكثر من ستين مرة، ومسلمًا نحو العشرين، سوى قراءته لهما في الطلب، أو قراءتهما من غيره عليه.

قرأ «البخاري» أكثر من (٥٠) مرة

قال الكتاني في «**فهرس الفهارس**»[٣]: «**وجدت في ثَبَت الشهاب أحمد بن قاسم البُوني: رأيتُ خطَّ الفيروزابادي في آخر جزءٍ من صحيح الإمام البخاري قال: إنه قرأ صحيح البخاري أزيدَ من خمسين مرَّة**» اهـ.

---

(١) (٤/٢٦٣).

(٢) (١/١٤١).

(٣) (٢/١٠٤٦).

قراءة «الرسالة» للشافعي (٥٠) سنة

ذكر ابنُ السُّبكي في «**طبقات الشافعية الكبرى**»[1] في ترجمة إسماعيل بن يحيى المزني صاحب الشافعي (ت ٢٦٤) قال: «**قال الأنماطي: قال المُزَني: أنا أنظر في كتاب «الرسالة»** منذ خمسين سنة، ما أعلم أني نظرتُ فيه مرَّةً إلا وأنا أستفيد شيئًا لم أكن عرفته» اهـ.

قرأ «المهذَّب» أكثر من (٤٠) مرة

ذكر عمر بن سَمُرة الجعدي في «**طبقات فقهاء اليمن**»[2] في ترجمة الإمام الفقيه يحيى بن أبي الخير العِمْراني (ت ٥٥٨) أنه قال عن نفسِه: «**إنه لم يُعلِّق «الزوائد على المهذب»** إلا بعد أن حفظه غيبًا على الإمام عبد الله بن أحمد الهَمْداني، ثم أعاده في أُحاظه (قرية باليمن)، ثم طالعه بعد ذلك كلِّه قبل التصنيف أربعين مرة أو أكثر.

---

(١) (٢/٩٩).

(٢) (ص ١٧٨).

أقول: وللعِمْراني طريقة في التدريس جديرة بالنظر والتأمُّل انظرها في المصدر السابق.

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُطالع الجزءَ من تجزئة أحدٍ وأربعين من «**المهذَّب**» في اليوم والليلة أربع عشرة مرة، لكلِّ فصلٍ منه» اهـ.

قراءة «معجم الأُدباء» (٨) مرات

قال الشيخ العلامة عبد العزيز الميمني الهندي الراجكوتي (ت١٣٩٨) عن نفسه: «**قرأتُ «معجم الأدباء»** لياقوت ـ على الأقل ـ سبع أو ثمان مرَّات، وأُفضِّله على كتاب «**وَفَيات الأعيان**»[1] اهـ.

قرأ «التوضيح» (٧٠) مرة، و«شرح ابن المُصَنِّف» أكثر من (٣٠) مرة

وفي «**الضوء اللامع**»[2] في ترجمة إبراهيم بن حجَّاج بن محرز بن مالك أبي إسحاق الأبناسي (ت ٨٣٦) قال السخاوي: «**وحُكي أنه قرأ «التوضيح»**[3] أكثر من سبعين مرة، وابن المصنِّف[4] ما ينيف على الثلاثين».

---

(١) «مجلة المجمع العلمي الهندي»: (١٠/ ٣٥٥).

(٢) (١/ ٣٨).

(٣) هو «أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك» لابن هشام الأنصاري (ت ٧٦٢)، مطبوع في مجلد لطيف، اشتهر اختصارًا بـ«التوضيح»، وهو أحد الكتب التي نثرت الألفية، وعليه شروح وحواشي كثيرة.

(٤) المقصود: بدر الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن مالك ابن صاحب =

قرأ «المدوَّنة» (١٠٠٠) مرة

تقدَّم[1] خبرُ ابن التبَّان، وكيف كان جَلَده وصبره على القراءة والطلب، وقول القاضي عياض: «**وكان كثير الدرس، ذكر أنه دَرَسَ كتابًا ألف مرة**». يعني: المدوَّنة.

كان يَدْرُس الكتاب (١٠٠٠) مرة

ذكر أبو العَرَب التميمي في «**طبقات علماء إفريقية وتونس**»[2] في ترجمة عباس بن الوليد الفارسي (ت ٢١٨) أنه وُجد في آخر بعض كتبه: دَرَسْتُه ألفَ مرة.

قراءة عددٍ من الكتب مرات عديدة

ذكر القاضي عياض في «**ترتيب المدارك**»[3] في ترجمة الإمام أبي بكر الأبهري (ت ٣٧٥) أنه قال عن نفسه: «**قرأتُ «مختصر ابن عبد الحكم»** خمس مئة مرة، و«**الأسدية**» خمسًا

= الألفية، اشتهر شرحه بشرح ابن المصنف. قال حاجي خليفة في «الكشف»: (١/ ١٥١): «وهو شرح منقَّح... خطَّأ والِدَهُ في بعض المواضع...». وهو مطبوع في مجلد.

(١) (ص ٧٥).

(٢) (ص ٢٢٤).

(٣) (٦/ ١٨٦).

وسبعين مرة، و«**الموطأ**» خمسًا وأربعين مرة، و«**مختصر البرقي**» سبعين مرة، و«**المبسوط**» ثلاثين مرة» اهـ.

قراءة البخاري والكشاف مرات كثيرة

قال المُحِبِّي في «**خلاصة الأثر**»[١] في ترجمة العلاَّمة علي بن عبد الواحد بن محمد الأنصاري أبي الحسن السِّجِلْماسِي الجزائري (ت ١٠٥٧): إنه «بلغ الغاية القُصوى في الرواية والمحفوظات وكثرة القراءة، وحكى بعض تلامذته أنه قرأ «الستة» على مشايخه دراية، وقرأ «البخاري» سبع عشرة مرَّة بالدرس، قراءةَ بحثٍ وتدقيق، ومرَّ على «الكشَّاف» من أوَّله إلى آخره ثلاثين مرة، منها قراءة ومنها مُطالعة» اهـ.

وكان بعضهم من شدّة ملازمته للكتاب يكاد يحفظه عن ظهر قلب ويهذّه هذًّا

ففي ترجمة عبد الله بن محمد بن فَرْحون اليَعْمَري (ت ٧٦٩) أنه قال عن نفسه: «لازمتُ تفسيرَ ابنِ عطية حتى كدت أحفظه»[٢].

---

(١) (٣/ ١٧٣).

(٢) «درة الحجال»: (٣/ ٥٠).

وفي ترجمة أبي القاسم بن علي بن مسعود الشاطبي أنه كاد يحفظ «صحيح البخاري» من كثرة التكرار له في كل رمضان[١].

ومن ذلك ـ أيضًا ـ ما ذكره السخاوي في «الضوء»[٢] في ترجمة عثمان بن عبد الله أبي عَمرو المَقْسي (ت ٨٧٧): «أنه أكثر من ملازمة المرور على الكتب الأربعة: «التنبيه» و«المنهاج» و«البهجة» وأصلها، قراءةً وإقراءً، حتى صارت له بها مَلَكَة قوية».

وفي ترجمة أحمد بن عمر الناشري اليماني[٣]: أنه اشتهر بمعرفة كتاب «الوسيط»[٤] حتى كان يعرفُ أين مكان المسألة فيه، وفي أيِّ صفحةٍ هي، بعد أن أُصِيبَ بالعَمَى.

---

(١) المصدر نفسه: (٣/ ٢٨٥).

(٢) (٥/ ١٣١).

(٣) من كتاب «هِجَر العلم ومَعَاقِله في اليمن»: (٤/ ٢١٦٧ رقم ٨).

(٤) للغزالي في فقه الشافعية، وهو مطبوع في سبعة مجلدات. وله أيضًا البسيط والوجيز والخلاصة، وقد قيل:

نَقَّحَ المذهبَ حَبْرٌ ... أحسنَ اللهُ خَلاصَهْ
بِبَسِيطٍ ووسِيْطٍ ... ووجيزٍ وخُلاصَهْ

الفصل السادس

تدريس الكتاب الواحد المرات الكثيرة

كثيرًا ما ينتخب العالم كتابًا أو كتبًا في فنون العلم، ويُدْمن على قراءتها وإقرائها لطلابه، ويكون هو قبل ذلك قد أخذ الكتاب عن شيوخه، وتمرَّس فيه وخَبَرَه، بحيث لا تخفى عليه جمهور مسائله، وغالب غوامضه ومشكلاته، فيكون هو المرجع فيه، وعليه المعوَّل في حلِّ مشكلاته وخوافيه.

بل قد يبلغ الأمر إلى أن يُلَقَّب العالم بذلك الكتاب، كما وقع للشيخ الفقيه جمال الدين أحمد بن محمد الواسطي الأُشْمُومي الشافعي (ت ٧٢٩)، فقد لُقِّب بـ«**الوجيزي**» لحفظه كتاب «**الوجيز**» للغزالي، وعنايته به[١]. كما لُقِّب الإمام الزركشي (ت ٧٩٥) بـ«**المنهاجي**» نِسبةً إلى كتاب «**منهاج الطالبين**» للإمام النووي، لعنايته به وإتقانه له فهمًا وشرحًا[٢].

وقد وقع للعلماء من ذلك شيءٌ كثير، وهو دالٌّ على صَبْرهم في نشر العلم وتعليم الناس، ودالٌّ ـ أيضًا ـ على

(١) «أعيان العصر»: (١/ ٣٧٩).

(٢) «إنباء الغمر»: (٣/ ١٣٨).

أهميـة هـذه الطريقـة (أعنـي المداومة علـى كتـابٍ بعينه) في ترسيخ العلم، واستحضار مسـائل الفنّ، وعدم تشتُّت الذهن. وينبغـي لمـن اعتمـد ذلـك منهجًـا أن يكـون مـع ذلـك دائم المطالعة في الفـن، مضيفًا إليه ما يحتاجه مـن تَدْليل وتعقيب وتنكيت وتحقيق.

فإلى شيءٍ من ذلك:

إقراء «المهذَّب» (٢٥) مرة

ففـي ترجمة الفقيـه كمال الديـن عمر بـن عبد الرحيم ابن العَجَمـي الشـافعي (ت ٦٤٢): أنـه أَلْقَـى كتـاب «**المهـذب**»[١] للشيرازي في فقه الشافعيةِ خمسًا وعشرين مرَّة[٢].

إقراء «مسلم» أكثر من (٦٠) مرة

وهـذا الإمـام الثقـة عبد الغافر بـن محمـد الفارسـي[٣] (ت ٤٤٨)، كان ملازمًا لإقراء «**صحيح مسلم**» فَقُرئ عليه أكثر

---

(١) مطبوع مرارًا عدة طبعات، وشرحه النووي بكتاب «المجموع».

(٢) «سِيَر النبلاء»: (٢٣/ ٢١٦).

(٣) هو جدّ الإمام عبد الغافر بن إسماعيل بن عبد الغافر بن محمد الفارسي، صاحب «السياق لتاريخ نيسابور».

من ستين مرَّةً، فقد قرأه عليه الحافظ الحسن بن أحمد السمرقندي نيِّفًا وثلاثين مرة، وقرأه عليه أبو سعد البَحِيري نيِّفًا وعشرين مرَّةً.

قال الحافظ الذهبي: «**هذا سِوى ما قرأه عليه المشاهير من الأئمة**»[1] اهـ.

أقرأ «المقْنِع» (١٠٠) مرة

قال الحافظ ابن رجب في ترجمة الإمام الفقيه الزاهد إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن الفرَّاء الحرَّاني ثم الدمشقي الحنبلي (ت ٧٢٩): إنه «**كان له خبرة تامة بالمذهب، يُقرئ «المقنع» و«الكافي» ويعرفهما، وكتب بخطه «المغني» و«الكافي»** وغيرَهما.

ويقال: إنه أقرأ «**المقنع**»[2] مئة مرَّة[3] اهـ.

---

(١) «سير النبلاء»: (١٨/ ٢٠).

(٢) للحنابلة عِدَّة كتب بهذا الاسم، لكن المقصود هنا كتاب موفق الدين ابن قدامة المقدسي (ت ٦٢٠)، وهذا الكتاب عمدة الحنابلة من زمن مؤلِّفه إلى يومنا. انظر: «المدخل المفصَّل»: (٢/ ٧٢٢) لشيخنا بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٣) «الذيل على طبقات الحنابلة»: (٢/ ٤٠٩).

أقرأ «الحاوي» (٣٠) مرة

وفي ترجمة الفقيه محمد بن عبد القادر بن عمر السّنجاري المعروف بالسكاكيني الشافعي (ت ٨٣٨) من كتاب «**إنباء الغمر**»[1] للحافظ ابن حجر ـ عصريّه ـ: أنه كان مشهورًا بِخِبْرةِ كتاب «**الحاوي**» وحُسْن تقريره[2]، بحيث قيل: إنه أقرأه ثلاثين مرَّة».

تدريس «العباب»[3] (٨٠٠) مرة

ذكر الزبيدي في «**تاج العروس**»[4]: أن عبد القديم[5] بن عبد الرحمن ابن حسين النُّزيلي اليماني درَّس «**العُباب**» في الفقه ثمان مئة مرَّة.

ألقى «الكشاف» (٨) مرات

وهذا الشيخ العالم الزاهد صالح بن عبد الله بن جعفر بن الصبَّاغ الكوفي الحنفي (ت ٧٢٧) كان فريدًا في علوم التفسير

---

(١) (٨/ ٣٦٦).

(٢) انظر: «الضوء اللامع»: (٨/ ٦٨).

(٣) في فقه الشافعية، للقاضي شهاب الدين ابن الباعوني (ت ٨١٠)، نظم، انظر «كشف الظنون» (ص ١١٢٢).

(٤) (٨/ ١٣٥) مادة (نزل)، وعنه «هجر العلم»: (٣/ ١٧٧٤).

(٥) «القديم» ليس من أسماء الله!

وغيرها، وقد ألقى «**الكشاف**» للزمخشري دروسًا من صدره ثمان مرَّات، مع بحثٍ وتدقيق، وإيرادٍ وتشكيك[١].

إقراء البخاري مرات كثيرة

ذكر السخاوي في «**الضوء اللامع**»[٢] في ترجمة الشيخ إبراهيم بن محمد بن صدِّيق الحريري: أنه لما جاور بمكة والمدينة، أقرأ البخاري أربع مرات بالمدينة، وبمكة أزيد من عشرين مرة.

إقراء «المدوَّنة» كل شهرين مرة

وجاء في «**ترتيب المدارك**»[٣] للقاضي عياض في ترجمة يحيى بن هلال القرطبي (ت ٣٦٧): أنه كان مقصودًا في السماع، دؤوبًا عليه، لم يُرَ في المحدّثين أصبر منه على المواظبة لذلك، كان يجلس كل يومٍ لاستماع «**المدوَّنة**» من الظهر إلى الليل، فيستوعب قراءتها كل شهرين، تمادى على ذلك عمره.

---

(١) انظر: «أعيان العصر»: (٢/ ٦٧٠)، و«الدرر الكامنة»: (٢/ ٢٩٩)، و«طبقات المفسرين»: (١/ ٢١٩)، و«الطبقات السنية»: (٤/ ٨٥) للتميمي.

(٢) (١/ ١٤٧).

(٣) (٦/ ٣٠١).

درَّس «التذكرة» (٤٠) مرة

قال محمد بن محمد بن زَبَارة في «مُلْحق البدر الطالع»[١] عن القاضي إدريس بن جابر العَيْزَرِي اليمني: إنه درَّس كتاب «التذكرة» زيادة على أربعين مرة.

إقراء عددٍ من الكتب مراتٍ عديدة

وجاء في ترجمة العلامة المحدِّث أبي عبد الله محمد التاودي ابن سودة المرِّي الفاسي (ت ١٢٠٩) من كتاب «فِهْرس الفهارس»[٢] للكتاني أنه:

كان مُثابرًا على إقراء «صحيح البخاري» حتى جاوزت ختماتُه الأربعين مرة، فلم يكن يدعه، لا سيما في شهر رمضان، يفتتحه في أول يومٍ منه، ويختمه آخره. وله عليه حاشية تسمَّى بـ«زاد المجد الساري» نحو أربع مجلدات.

وأقرأ «الألفية» في النحو نحوًا من ثلاثين مرَّة، وربما أقرأها في الشهر الواحد بَدْءًا وخَتْمًا.

وأقرأ «مختصر خليل» نحو ثلاثين مرة.

---

(١) (٢/ ٥٢).

(٢) (١/ ٢٥٦ ـ ٢٥٨)، وقد جاوز عمره التسعين رحمه الله.

أمَّا «**الآجُرُّومِيَّة**»، فلم يزل يُقرئها خصوصًا للصِّغار من أعقابه وأبناء أهل المودَّة إلى وفاته» اهـ.

إلقاء المختصرات في أقْصَر مُدَّة

وقد كان بعضُ العلماء لمزيد اعتنائهم ببعض الكتب، وممارستهم لها يُلقونها دروسًا في أسرعِ وقتٍ وأقصرِ مُدة، مع مزيد المثابرة والاجتهاد، فمن ذلك:

درَّس «المدوَّنة» في شهر

ذكر القاضي عِياض في «**ترتيب المدارك**»[(١)]: في ترجمة أبي إسحاق الجبنياني ـ أحد الأئمة ـ (ت ٣٦٩) أنه قال: لقد كنا نجتمع، ولقد ألقينا «**المدوَّنة**» في شهر، ندرس النهار ونُلْقي الليل، فما علمتُ أنا نِمْنا ذلك الشهر.

إلقاء «الحاوي الصغير» مرات في شهر

ففي ترجمة الإمام العلامة المفتي علي بن عبد الله بن أبي الحسن التِّبْريزي الشافعي (ت ٧٤٦) من كتاب: «**أعيان العصر**»[(٢)]

(١) (٦/ ٢٢٦).

(٢) (٣/ ٤٠٩).

عن ابـن رافـع السَّـلَّامي[(١)]: أنـه (أي: التِّبريـزي) أقـرأ «**الحاوي**» للقزويني كُلَّه في نِصف شهر.

ثم قال الصفديُّ: وسمعتُ غيرَ واحدٍ من المصريين أنه أقرأ «**الحاوي**» من أوَّله إلى آخره في شهرٍ واحدٍ تِسْع[(٢)] مرَّات.

إلقاء «الحاوي» في أيامٍ يسيرة

قال الحافظ ابن حَجَر العسقلاني في «**المجمع المؤسِّس**»[(٣)] فـي ترجمـة شـيخه سـراج الديـن عمر بـن رسـلان البُلْقينـي (ت ٨٠٥): «ذكر لي ولـده قاضي القضاة جـلال الدين أنه كان يُلْقي «الحاوي الصغير» دروسًـا في أيامٍ يسـيرةٍ، مـن أغربها أنه ألقاه في ثمانية أيامٍ» اهـ.

وجاء في «**فهرس الفهارس**»[(٤)] ـ أيضًا ـ في ترجمة أبي رأس

(١) ترجـم لـه ابنُ رافـعٍ فـي «الوفيـات»: (٢/ ١٦ ـ ١٧)، وليـس فيـه ما نَقَلَه الصفديُّ، فلعله من «معجم الشيوخ»، وهو كتاب كبير في عداد المفقود.

(٢) كذا في «أعيان العصر»، وفـي «الدرر الكامنـة»: (٣/ ٧٣) ـ وهو ينقل عن الصفدي ـ و«بُغية الوعاة»: (٢/ ١٧١)، و«طبقات المفسـرين»: (١/ ٤١٢): «سبع» بتقديم السين. فالله أعلم.

(٣) (٢/ ٢٩٩).

(٤) (١/ ١٥٠). ووصفه الكتاني بـ«حافظ المغرب الأوسط ورحَّالته». =

المُعَسْكري محمد بن أحمد بن عبد القادر الجزائري (ت ١٢٣٩): أنه كان مُتْقِنًا لجميع العلوم عارفًا بالمذاهب الأربعة، مُحقِّقًا لمذهب مالكٍ غايةً، لا سيما «**مختصر خليل**»، فَلَهُ فيه الملَكة التامة، بحيث يُلْقيه على طلَبته في أربعين يومًا، و«**الخلاصة**» لابن مالك في عشرة أيامٍ.

= (**لطيفة**): كان أبو رأسٍ هذا يُذكر بقوَّةِ الحافظةِ وسَعَة الاطلاع، فاتُّهِمَ، فاجتمع جماعةٌ من تلاميذه فركَّبوا اسمًا نطقَ كلٌّ واحدٍ منهم بحرفٍ منه، وجعلوه اسمًا لملكٍ، وسألوا الشيخَ عنه، فأملى لهم ترجمتَه وسِيْرته وأعمالَه، فاتفقوا أن الشيخَ كاذبٌ!

ولما طالت المدَّة، وقف أحدُهم على الاسم والسيرة في كتابٍ تاريخي على نحو ما كان أملاه الشيخ أبو رأسٍ عليهم، فعلموا أن الشيخَ صادق وهم مقصِّرون متهمون الشيخ مما هو منه بريءٌ.

قال الكتاني: وهذه حالة كبار الحفاظ مع القاصرين والجاهلين.

الفصل السابع

نسـخ الكتب
وما تحمَّلوه في ذلك

عاش أكثر أهل العلم في سالف الدهر وآنِفِه عِيْشةَ الكفاف، فلم يكن لهم مال، ولم يكن همّهم جمع المال ولا طلب الدنيا، ورُزقوا من القناعة ما أورثهم غِنَى النفسِ، فكان أحدهم غنيًّا من غير مال، عزيزًا من غير حَمِيَّة ولا عَشِيرة، وكانت تلك المعيشة خير مُعِينٍ لهم على الانجماع في طلب العلم، وعدم الالتفات إلى غيره، لأن العلم لا يقبل الشركة.

ولما كان حالُهم كذلك = لم يكن لهم ما يستطيعون به اقتناء ما يحتاجون إليه من كتب وأسفار، ولم يكن لديهم ما يمكن به استئجار من ينسخ، فكانوا إما أن يستعيروا الكتب[1] أو ينسخوها بأنفسهم.

هذا عدا ما يكتبون من تآليفهم الخاصة، كما نسخ الحافظ المزِّي كتابيه الضخمين (تحفة الأشراف، وتهذيب الكمال) بيده

(١) لذا ورد الترغيبُ في إعارة الكتب لمستحقيها، وعَقَد العلماءُ لذلك فصولاً في ثنايا كتبهم، وأوردوا فيه من القَصَص والحكايات والأشعار الكثير والكثير، من الجانبين المُعِيْر والمستعير.

أكثر من مـرَّة[١]، وفعل الذهبيُّ الأمرَ نفسَـه فـي أضخم كتبه (تاريخ الإسلام، وسير النبلاء) وغيرها، وهكذا.

وربما افتقـر العالم فبـاع نسـخته التي بخطـه، كما وقع لأبي علي الجياني[٢]، وللمزي[٣] وغير واحد.

والناظر فـي تراجمهم وسـيرهم يعلـم مقـدار ما بذلوه من أوقات طويلـة، وجهود جبـارة، وصبر جميل في نسـخ الكتب الكبار، والجوامع الضخمة، التي ينوء بنسخ أقلها اليوم الطالب المُجِدّ، فإلى نماذج منها:

١ ـ قال السَّهْمي في **«تاريخ جرجان»**[٤]: سمعتُ أبا بكر الإسـماعيلي وأبا أحمد بن عدي يقولان: إسـماعيل بن زيد (صاحبُ حديثٍ جـوَّال) كان يكتب في ليلـةٍ سـبعين ورقـة بخطٍّ دقيق.

---

(١) انظر: «ذيـل تاريخ الإسـلام»: (ق/ ١١٤ أ ـ ب) للذهبي، و«طبقات علماء الحديـث»: (٤/ ٢٦٧)، و«طبقـات الشـافعية الكبـرى»: (١٠/ ٤١٧)، لأنه ربما افْتَقَر فباعهما.

(٢) انظر: «التكملة لكتاب الصلة»: (٤/ ١٦) فقد باع الجيّاني نسخته من «سنن أبي داود» بخطه، التي قرأها على ابن عبد البر، وقابلها وأتقنها.

(٣) «الدرر الكامنة»: (٤/ ٤٦١).

(٤) (ص ١٤٣).

٢ ـ وذكر ابن رجب في «**الذيل على طبقات الحنابلة**»[1] في ترجمة عبد الوهاب الأنماطي الحافظ عن ابن السمعاني أنه قال عنه: «جمع الفوائد، وخرَّج التـخاريج، لعله ما بقي جزءٌ مرويٌّ إلا وقد حصَّلَ نُسْـخَتَه. ونَسَـخ الكتـب الكبار مثـل: «الطبقات لابن سعد»، و«تاريخ الخطيب»، وكان متفرِّغًا للتحديث، إما أن يقرأ عليه أو ينسخ شيئًا».

٣ ـ وفي ترجمة الحافظ عبد القـادر الرُّهاوي (ت ٦١٢) من «**الذيل**»[2] أنه: «كتب بخطه الكثيرَ، من الكتب والأجزاء، وأقام بدمشـق بمدرسـة ابن الحنبلي مدة، حتى نسخ «تاريخ ابن عساكر»، وسمعه عليه» اهـ.

٤ ـ وفيه[3] ـ أيضًا ـ في ترجمة أحمد بن عبد الدائم المقدسي (ت ٦٦٨): «وكان يكتب خطًّا حسـنًا، ويكتب سريعًا، فكتب ما لا يوصَف كثرة من الكتب الكبار والأجزاء المنثورة لنفسه وبالأُجرة، حتـى كان يكتب فـي اليـوم ـ إذا تفرَّغ ـ تسـع كراريـس أو أكثر، ويكتب ـ مع اشتغاله بمصالحه ـ الكراسين والثلاثة.

---

(١) (١/ ٢٠٢).

(٢) (٢/ ٨٤).

(٣) (٢/ ٢٧٩).

وكتبَ «**مختصر الخِرَقي**» في ليلة واحدة، وكتب «**تاريخ الشام**» لابن عساكر مرتين، و«**المغني**» للشيخ موفّق الدين مرَّات.

وذكر أنه كتب بيده أَلْفَي مُجلَّدة، وأنه لازم الكتابة أزيد من خمسين سنة» اهـ.

٥ ـ وفي «**تذكرة الحفاظ**»[١] للذهبي في ترجمة أبي عبد الله الحُمَيْدي الأندلسي (ت ٤٨٨): «**قال يحيى بن البناء: كان الحُميدي من اجتهاده ينسخ بالليل في الحرّ، فكان يجلس في إجّانة ماءٍ**[٢] **يتبرَّد به**» اهـ.

٦ ـ وفي «**التذكرة**»[٣] ـ أيضًا ـ في ترجمة أبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي (ت ٥٠٧): وقال السِّلَفي: سمعتُ ابنَ طاهر يقول: كتبتُ «**الصحيحين**» و«**سنن أبي داود**» سبع مرات بالأجرة، و«**سنن ابن ماجه**» عشر مراتٍ بالرَّي» اهـ.

سبحان الله! ينسخ هذه الكتب هذا العدد من المرات، ولو كُلِّف أحدُنا قراءَتَها بنحو هذا العدد لعجز، فلا قوَّة إلا بالله.

---

(١) (٤/١٢١٩).
(٢) إناء تُغسل فيه الثياب.
(٣) (٤/١٢٤٣).

٧ ـ وفي «**التذكرة**»[(١)] ـ أيضًا ـ في ترجمة المؤتمن الساجي (ت ٥٠٧) أنه: «أقام بهَرَاة نحو عشر سنين، وقرأ الكثير، وكتب «جامع الترمذي» ست مرات، وكان فيه صَلَف وقناعة وعِفّة واشتغال بما يعنيه».

٨ ـ وفي «**ذيل الطبقات**»[(٢)] لابن رجب في ترجمة أبي الفرج ابن الجوزي صاحب التصانيف الكثيرة (ت ٥٩٧) أنه: «كان لا يضيع من زمانه شيئًا، يكتب في اليوم أربع كراريس، ويرتفع له كل سنة من كتابته ما بين خمسين مجلدًا إلى ستين.

وقال سِبْطُه[(٣)]: «إنه سمعه على المنبر في آخر عمره يقول: كتبتُ بإصبعيَّ هاتين ألفي مُجَلَّدة».

٩ ـ وفي «**ترتيب المدارك**»[(٤)] للقاضي عياض، في ترجمة الإمام أبي بكرٍ الأبهري المالكي (ت ٣٧٥) عن أبي القاسم الوهراني ـ أحد تلاميذه وله جزء في ترجمته ـ قال: «سمعتُه يقول: كتبت بخطي «المبسوط» و«**الأحكام**» لإسماعيل

(١) (٤/ ١٢٤٧).
(٢) (١/ ٤١٢).
(٣) «الذيل»: (١/ ٤١٠). ينظر مرآة الجنان.
(٤) (٦/ ١٨٥ ـ ١٨٦).

(القاضي المالكي) وأسْمِعَة ابنِ القاسم وأشهبَ وابنِ وهبٍ، و«**موطأ مالك**»، و«**موطأ ابن وهب**»، ومن كتب الفقه والحديث نحو ثلاثة آلاف جزءٍ بِخَطِّي، ولم يكن لي قط شغل إلا العلم» اهـ.

١٠ ـ وفي «**ترتيب المدارك**»[(١)] ـ أيضًا ـ في ترجمة سعيد بن خلف الله البصري قال: «وكتب بيده كثيرًا من الدواوين، قلَّما رأيتُ كتابًا مشهورًا في المذهب إلا وقع إليَّ بخطه، وسواءٌ ذلك من كتب التفسير أو غيرها» اهـ.

١١ ـ وفي ترجمة محمد بن مُكَرَّم ـ بضم الميم وفتح الكاف وتشديد الرَّاء ثم ميم ـ المعروف بابن منظور صاحب «**لسان العرب**» أنه: اختصر كتبًا كثيرة، من المطوّلات وغيرها.

فاختصر «**تاريخ بغداد**»، و«**ذيله**» لابن النجار، و«**تاريخ دمشق**» لابن عساكر، و«**مفردات ابن البيطار**»، و«**الأغاني**» ورتّبه على الحروف، و«**زهر الآداب**» للحُصْري، و«**الحيوان**» للجاحظ، و«**اليتيمة**» للثعالبي، و«**الذخيرة**» لابن بسَّام، و«**نشوار المحاضرة**» للتنوخي.

---

(١) (٨/ ٨٥ ـ ٨٦).

وكتب بخطه شيئًا كثيرًا، ترك منه بعد موته خمس مئة مجلَّد.

قال ابن فضل الله العُمَري: إنه لم يزل يكتب ويسـهر الليل في الكتابة حتـى كان يقضي الليالي الطوال كلها سـهرًا، لا يلمّ فيها بِكَرَى، ولا يطعم عينه فيها بِهَجْعَة. وكان يتـخذ إلى جانبه إناءً فيه ماء، فإذا غلبه السَّـهَر، وكاد يصرعـه الكرى = أخذَ من الماء فَسَكب في عينيه، فَعَمِيَ في آخر عمره(١).

١٢ ـ وفي «**الـرد الوافر**»(٢) لابن ناصر الدين الدمشـقي، لما ذكر محمد بن إبراهيم ابن المهندس قـال: «**كتب الكثير ورحل ودأب... ونسخ «تهذيب الكمال»**(٣) تأليف المِزِّي مرتين، ونسخ كتاب «**الأطراف**»(٤) ـ يعني: تحفة الأشراف ـ للمِزِّي أيضًا بخطِّه الواضح الحسن» اهـ.

---

(١) انظر «المقفى»: (٧/ ٢٨٦، ٢٨٨) للمقريزي، و«الدرر الكامنة»: (٤/ ٢٦٢)، و«بغية الوعاة»: (١/ ٢٤٨).

(٢) (ص ٧٨).

(٣) وهذه النسـخة في دار الكتب المصرية (٢٦ ـ مصطلح) كتبها سنة (٧١٢) وعليها خط المؤلف الحافظ المزي، والعلائي. أورد الزركلي في «الأعلام»: (٥/ ٢٩٨) نموذجًا منها.

(٤) وهذه النسخة سبعة أجزاء، لم يبق منها إلا الجزء السادس، انظر نبذةً عنها في «مقدمة تحفة الأشراف»: (٢/ ٢٣ ـ ٢٥) لعبد الصمد شرف الدين.

١٣ ـ ذكر أبو سعد السمعاني في «**التحبير في المعجم الكبير**»[١] ـ وهو من عجيب ما رآه ـ في ترجمة أبي عبد الله الحسين بن أحمد البيهقي: أنه اتفق أن لحِقَتْه عِلَّة، «فَقُطِعت أصابعه العشر، ولم يبقَ له إلا الكفَّان فحسب، ومع هذا كان يأخذ القلمَ بكفَّيْه ويضع الكاغَدَ على الأرض، ويُمسكه برِجْل، ويكتب بكفيه خطًّا حسنًا مقروءًا مبينًا، وربما كان يكتب في كل يومٍ خمس طاقات[٢] من الكاغد، وهذا من عجيب ما رأيته» اهـ.

١٤ ـ وفي «**التحبير**»[٣] ـ أيضًا ـ في ترجمة أبي محمد الخواري أنه كان فقيهًا مفتيًا، سريع القلم، نسخ بخطه «**المذهب الكبير**»[٤] للجويني أكثر من عشرين مرَّة، وكان يكتبه ويبيعه.

١٥ ـ وذكر النووي في «**بستان العارفين**»[٥] عن شيخه أبي إسحاق إبراهيم بن عيسى المراوي قال: سمعتُ الشيخ

---

(١) (١/ ٢٢٣).

(٢) الطاقة نحو (١٠) ورقات، انظر: «توثيق النصوص» (ص ٢٣١ ـ ٢٣٣).

(٣) (١/ ٤٢٣).

(٤) وهو: «نِهاية المَطْلَب» وقد تقدَّم التعريف به (ص ٩٠).

(٥) (ص ١٩٧).

عبد العظيم (المنذري) رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: كتبتُ بيدي تسعينَ مجلَّدةً، وكتبت[1] سبع مئة جُزْءٍ، كلٌّ ذلك من علوم الحديث، تصنيفٍ وغيرِه، وكَتَب من مصنفاته وغيرها أشياء كثيرة.

قال المراوي: ولم أرَ ولم أسمع أحدًا أكثر اجتهادًا منه في الاشتغال، كان دائم الاشتغال في الليل والنهار.

١٦ ـ ذكر الصفدي في «**أعيان العصر**»[2] في ترجمة العلامة شهاب الدين النُّوَيري (ت ٧٣٣) أنه: «**كتب كثيرًا، كتب «البخاري» مرّاتٍ**، كتبه ثماني مرات[3]، وكان يكتب

---

(١) في المطبوعة: «وكتب ذلك من»! والصواب ما أَثبتُ.

(٢) (١/ ٢٨١).

(٣) وقد وقفت على تصريح النُّويري بذلك في تاريخه «نهاية الأرب»: (٣٢/ ١٧ ـ دار الكتب المصرية) قال بعد ذكره نسخة شيخه الحافظ اليونيني: «وقد نقلت صحيح البخاري من أصله مرارًا سبعة، وحررته كما حرّره، وقابلت بأصله وهو أصلُ سماعي على الحجار ووزيرة» اهـ.
قلت: وقد وقفتُ بحمد الله تعالى على نسختين من هذه النسخ السبع، إحداهما كتبها في سنة (٧١٥) والثانية (٧٢٠) وكلاهما في مجلد واحد، بخط نفيس دقيق غايةً في البراعة والضبط والجمال، وهما نسختان جليلتان عليهما قراءات العلماء ومقابلتهم، وهذه النسخ من العُمَد التي اعتمدنا عليها في تحقيق «صحيح البخاري» يسّر الله تعالى إتمامه بمنه وكرمه.

النسخة ويقابلها، وينقل الطِّباق عليها ويجلدها، ويبيعها بسبع مئة درهم وبألف.

وكان يكتب في النهار الطويل ثلاث كراريس، ... وجمع تاريخًا كبيرًا[1] في ثلاثين مجلدة، رأيتُه بخطِّه» اهـ.

١٧ ـ وذكر الصفدي في «**أعيان العصر**»[2] ـ أيضًا ـ في ترجمة أحمد بن محمد بن أبي المواهب (ت ٧٢٣) قال: «**قيل: إنه كتب خمس كراريس في يومٍ، وهذا أمر قلَّ أن يُعْهد في قوم**».

هذا غيض من فيض، وقليل من كثير، فقد اجتمع عندي أخبارٌ من هذا النمط لو نَثَرْتُها لملأت صفحات وصفحات.

ولولا أن يُظنَّ بنا غُلُوّ   لَزِدْنا في المقالِ مَن اسْتَزَادا

لكني لا أحب أن أُفوِّت الفائدة على القارئ، فرأيت أن أشير إلى مواضع ذلك في مصادره دون ترتيبٍ.

(١) وهو: «نهاية الأرب»، طُبع كاملاً في (٣٣) مجلدًا في دار الكتب المصرية، وذكر الحافظ أنه باعه بألفي درهم.

(٢) (١/ ٣٢٧).

«البـدر الطالـع»: (١/ ١٠٦، ٣٥٧، ٤٢٠) (٢/ ٩٤)، «ملحق البـدر الطالـع»: (٢/ ٨٣)، «السـير»: (١٦/ ٢٤٨)، (٢٣/ ٢٤٨)، «أعيان العصر»: (١/ ٤٨، ١٦٩، ١٧٠، ٤١٥)، «إشـارة التعيين»: (ص/ ٤٣)، «الجواهر والدرر»: (١/ ١٠٧)، «معرفة القراء الكبار»: (١/ ٢٦٥)، «الطبقات السـنية»: (٣/ ٧١)، «المقفَّى»: (٧/ ٤١٧)، «ذيل التقييد»: (١/ ١٧٨)، «التحبير في المعجم الكبير»: (١/ ٣٩٠، ٥٩٠)، (٢/ ١٣٤).

الفصل الثامن

إيقاظات وتنبيهات

الإيقاظ الأول: ما هي العلوم التي ينبغي التبحُّر فيها؟

سؤال كثيرًا ما يطرأ على أذهان الكثير منا، وقد يجد الإنسان جوابات شتى، قد لا تسكن النفس إلى واحدٍ منها، لكن يمكننا أن ننبّه إلى أمرين مهمين ربما يكشفان بعض التردد والتحيُّر.

التنبيه الأول: في بيان ما هي أجلّ العلوم

أجل العلوم ما قرَّبك من خالقك، وما أعانك على الوصول إلى رضاه، وهذه هي علوم الكتاب والسنة.

قال الحافظ ابن رجب(١) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالذي يتعيَّن على المسلم الاعتناءُ به والاهتمامُ: أن يبحثَ عمَّا جاء عن الله ورسوله ﷺ، ثم يجتهد في فهم ذلك، والوقوف على معانيه، ثم يشتغل بالتصديق بذلك إن كان من الأمور العِلْمية. وإن كان من الأمور العَمَلية، بذلَ وُسْعَه في الاجتهاد في فِعْل ما يستطيعه من الأوامر، واجتناب ما يُنهى عنه، وتكون همته مصروفة بالكُلِّية إلى ذلك، لا إلى غيره.

(١) في «جامع العلوم والحِكَم»: (١/ ٢٤٤ وما بعدها).

وهكذا كان حالُ أصحاب النبيِّ ﷺ والتابعين لهم بإحسان في طلبِ العلم النافع من الكتاب والسنة» اهـ.

وقال الحافظ ابن حجر[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان المراد من العلم المطلوب التزود منه: «[هو] الذي يفيد معرفةَ ما يجب على المكلَّف مِنْ أمر عباداته ومعاملاته، والعلم بالله وصفاته، وما يجب له من القيام بأمره، وتنزيهه عن النقائص، ومدار ذلك على التفسير والحديث والفقه» اهـ.

وعلى هذا النحو تدور عبارات الأئمة في بيان العلم النافع الذي ينبغي التبحُّر فيه، والحرص عليه، والاستكثار منه[٢]، فلا نطيل بنقل نصوصهم.

التنبيه الثاني: لا شك أن الناس متفاوتون في قدراتهم ومواهبهم، فينبغي لكلّ واحدٍ منّا أن ينظر بعين البصيرة فيما يمكن أن يحسنه ويُبْدع فيه (وقيمة كل امرئٍ ما يحسنه)، فيكرِّس فيه جهدَه ويستنفد فيه وُسْعَه، ويكون مع ذلك ذا همة

---

(١) «فتح الباري»: (١/ ١٧٠ ـ ١٧١).

(٢) انظر: «إعلام الموقِّعين»: (١/ ٥)، و«فضل علم السلف على علم الخلف»: (ص ٦٧ ـ ٦٩، ٦٤ ـ ٦٥). و«مسائل في طلب العلم وأقسامه» (ص ٢٠٥) للذهبي ـ ضمن «ست رسائل»، و«الفوائد» (ص ١١١، ٢٥٤) لابن القيم.

عالية، فإن «من شَغَلَ نفسَه بأدنى العلوم وتركَ أعلاها ـ وهو قادر عليه ـ، كان كزارع الذُّرَة في الأرض التي يجود فيها البُرُّ، وكغارس الشَّعْراء[١] حيثُ يزكو النخل والزيتون».

أمَّا «من مال بطبعه إلى علمٍ ما ـ وإن كان أدنى من غيره ـ فلا يشغلها بسواه، فيكون كغارس النارجيل[٢] بالأندلس، وكغارس الزيتون بالهند، وكلُّ ذلك لا يُنجب»، كما قال ابن حزم[٣] رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وهنا يسأل كثير من الطلبة: كيف أعرف العلم الذي تميل إليه نفسي ويمكن أن تبرز فيه وتُبدع؟ وقبل الجواب أنبّه إلى أن هذه المرحلة ينبغي أن لا يتعجل الطالب الوصول إليها، حتى يستكمل أدوات الفنون، وينهي رحلة التأصيل؛ لأنها أشبه شيء بمرحلة التخصُّص أو هي الطريق إليها. فنقول: لذلك طرق أربعة:

١ ـ أن تجد نفسك محبًّا لذلك الفن، تحبّ أن تقرأ فيه، وتعرف مسائله.

---

(١) ضرب من الحمضيات، ليس له ورق، وتحرص عليه الإبل.

(٢) هو: جوز الهند.

(٣) في «رسالة مداواة النفوس»: (١/ ٣٤٤) ضمن «رسائل ابن حزم» وما بين الأقواس منه.

٢ ـ أن تلاحظ نفسك كثير الاقتناء لكتبه ميّالًا إلى معرفة أسمائها وأسماء مؤلفيها وطبعاتها وما يتعلق بذلك.

٣ ـ أن يرشدك أستاذك أو أصحابك إلى بروزك في الفن وإلى استيعاب كتبه وحلّ مشكلاته.

٤ ـ وقد يكتشفها الإنسان بنفسه في أثناء تدرُّجه في مراحل الطلب.

الإيقاظ الثاني:

وينبغي أن ننبِّه هنا إلى أن ذِكر أجلِّ العلوم والحث على التبحّر فيها لا يعني التزهيد في الفنون الأخرى؛ لأننا نحتاج أيضًا إلى علماء في الفنون المختلفة، فالحاجة إذن داعية إلى معرفة الفنون المختلفة والتخصص فيها. ومنازع النفوس كما سبق أيضًا لها القوة والتأثير في تخصّص الإنسان ومعرفة فنِّه الذي سيبرز أو يتبحّر فيه.

وإلى ذلك نقول: إن علوم الوسائل أو ما يسمّى بـ«**علوم الآلة**» يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ ما يجب معرفته وتعلمه وجوب الوسائل.

٢ ـ ما لا يجب وجوب الوسائل وهو قسمان:

أ ـ ما يؤثر معرفته في اكتمال آلة الاجتهاد.

ب ـ ما لا يؤثر، ومعرفته أشبه بالخلاف اللفظي، أو ما لا أثر له في الفن، أو من قبيل معرفة الاصطلاح..

وعليه فاكتمال المَلَكة في علوم الكتاب والسنة (علوم المقاصد أو علوم الغايات) مرهونٌ باكتمال الفهم والاستيعاب لعدد من العلوم الآلية المساعدة من القسم الأول؛ كعلوم العربية، وأصول الفقه، والمصطلح... فبعض تلك العلوم يجب تعلّمه وجوبَ الوسائل، إذ يتوقف فهم كلام الله ورسوله على فهم بعض مسائلها، فهي من قبيل(ما لا يتم الواجب إلا به).

فهذا ما يجب، وأما ما لا يجب، فما لا تأثير له، وما لا ينبني عليه عمل، ولا ريب أنه بمقدار أَخْذ العالمِ من العلوم المساعدة، وتمكّنه منها ـ خاصَّة فيما يتوقَّف عليه فهم الخطاب الشرعي، وليس من الأبحاث المكرّرة أو التي هي فَضْلَة ـ، يكون أقدر على الاجتهاد والاستنباط(١)، فإن العلوم آخذٌ بعضها برقاب بعضٍ(٢).

---

(١) انظر «مفتاح دار السعادة»: (١/ ٤٨٢ ـ ٤٨٦) وهو مهم.

(٢) ذكر الشاطبي في «الموافقات»: (٥/ ٥٣) عن الجرمي أنه قال: «أنا منذ ثلاثين سنة أفتي الناس في الفقه من «كتاب سيبويه» اهـ. وانظر شرح

الإيقاظ الثالث: الموازنة بين قراءة الكتب والأخذ عن الشيوخ

أَخْذ العلم له طريقان يجتمعان ولا يتنافران:

أحدهما: طريق المشافهة، وهو أخذه عن أهله العلماء به، وهذا هو الأصل الأصيل في تَلَقِّي العلوم، وهذه طريقة السلف في ابتداء التلقِّي وتأصيل العلوم، قبل تدوين الكتب وبعدها، وليس هنا مجال الحديث عن هذه الطريقة.

الثانية: أخذه عن الكتب والمصنفات، وهي دواوين العلم وخزائنه. وقد رأيت مَن يجعل بين الطريقتين تخالفًا وتعارضًا، خاصّة في هذا العصر، وعليه فإنني أُنبّه إخواني إلى أمور:

١ ـ لابُد من الموازنة والمزاوجة بين أَخْذ العلم من الكتب وأخذه من العلماء، فإن العلم وإن كان مُوْدعًا في بطون الكتب، إلا أن مفاتِحَهُ بأيدي الرجال، كما في المقولة المشهورة[(١)].

الشاطبي لهذا القول.

(١) «الموافقات»: (١/ ١٤٠). وفي «السير»: (٧/ ١١٤) في ترجمة الأوزاعي قال: «كان هذا العلم كريمًا، يتلاقاه الرّجال بينهم، فلما دخل في الكتب، دخل فيه غير أهله». وانظر شرح الذهبي لها.

وعليه فلا أقلَّ من أخذ مختصر في كلٍّ فنّ على عالم به متخصِّص فيه(١)، هذه هي الطريقة المعروفة والجادة المسلوكة.

ثم بعد أن يُحَصِّل الطالب قاعدةَ الفنّ وأصوله، وهو ما عبَّر عنه الشاطبي بقوله: «أن يحصل له من فَهْم مقاصد ذلك العلم المطلوب، ومعرفة اصطلاحات أهله، ما يتمّ له به النظر في الكتب» اهـ = فَلْيَبْنِ عليه حينئذٍ، مع التدرُّج والترقِّي بالقراءة في مطوَّلات الفن وشروحه، وليحرص مع ذلك كلِّه على مُسَاءَلَةِ أهل الفن ومذاكرتهم، فإنه كما قال الإمام النووي «مذاكرة حَاذِقٍ في الفنِّ ساعةً أنفع من المطالعة والحفظ ساعاتٍ بل أيَّامًا»(٢).

ولا ينبغي للطالب أن يبالغ في مقدار القراءة والأخذ عن الشيوخ ليقيسَ نفسَه بما سلف من العصور، إذ كان الشيخ والطالب في تفرُّغ تامّ للقراءة والإقراء، مع قطع العلائق

---

(١) أَخْذ العلم على المتخصِّص فيه هو الأولى والأسْلَم، ولا تصدِّق إذا قيل لك: إن فلانًا متخصِّص في كلٍّ فنّ أو في أغلب الفنون! هذا في القدماء، وفي المُحْدَثين أولى وأحرى، ومن يدّعي المعرفة بجميع الفنون فأحد رجلين، إما منادٍ على نفسِه بالجهالة، أو لا يدري ما التخصّص!!

(٢) «شرح مسلم»: (١/٤٨).

والعوائق، وتمام الأهليـة لتلك الملازمة الطويلـة من الجهتين. وهذا الضعف في تلقي العلم عن أهله من نقص العلم وقبضه، إذ قبضـه بقبـض العلمـاء وقلتهـم، وإلا فالكتـب أكثر انتشـارًا وتداولًا من ذي قبل.

٢ ـ ينبغـي التمعُّن فـي اختيار المتـن الذي يُـرَاد حفظه أو درسـه، ليكون مناسبًا للطَّالب مـن أغلب الوجـوه على الأقل، حتى لا ينتقـل منه إلى غيره، فـإن كثرة التنقل فـي الكتب دليل على ملل الطالب وعدم فلاحه غالبًا.

٣ ـ ليحرص الطالب أشـدَّ الحرص على كتـب المتقدمين والمحققيـن مـن أهـل العلـم، أمـا المتقدميـن، فواضـح، وأمّا المحققيـن، فلا يخلو كلُّ عصر مـن قائم لله بحجـة من أولئك العلماء المحققين[١]، أصحاب التصانيـف النافعة المحرَّرة، في كل الفنـون الإسـلامية، وتمتاز هـذه الكتب بالتأصيـل العلمي، وتدليـل المسـائل، وتحريرها، والاعتنـاء بما يَنْبَنـي عليه عملٌ، والبعد عن المجـادلات الكلاميـة والمُمَاحـكات اللفظية، التي لا أثر لهـا في العلم نفسِـه، وهـذه بعض أسـماء المحققين من عصور مختلفة ليستدل بها على غيرها:

(١) انظر صفة العالم المحقق في «الموافقات»: (١/ ١٣٩ ـ ١٤٥).

ابن جرير (ت ٣١٠)، والخطيب البغدادي (ت ٤٦٣)، وابن عبد البر (ت ٤٦٣)، والبغوي (ت ٥١٦)، وابن قدامة (ت ٦٢٠)، والنووي (ت ٦٧٦)، وابن دقيق العيد (ت ٧٠٢)، وشيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨)، والذهبي (ت ٧٤٨)، وابن القيم (ت ٧٥١)، وابن كثير (ت ٧٧٤)، وابن رجب (ت ٧٩٥)، والعراقي (ت ٨٠٦)، والحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢)، والسخاوي (ت ٩٠٢)، والشوكاني (ت ١٢٥٠)، وطاهر الجزائري (ت ١٣٣٨)، والمعلّمي (ت ١٣٨٦)، والأمين الشنقيطي (ت ١٣٩٣)، وغيرهم[١].

وعليه، فاحذر كتبَ أهل البدع والضلالة في القديم والحديث، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ «... **ولهذا كُرِه لمن لا يكون له نقدٌ وتمييزٌ النظرُ في الكتب التي يَكثُر فيها الكذبُ في الرواية، والضلالة في الآراء ككتب أهل البدع، وكُرِه تلقِّي العلم من القُصَّاص وأمثالهم، الذين يكثر الكذبُ في كلامهم، وإن كانوا يقولون صِدْقًا كثيرًا**»[٢] اهـ.

(١) وانظر «حلية طالب العلم» (ص ٥٥).

(٢) «منهاج السنة»: (٢/ ٤٦٨).

الإيقاظ الرابع: التعرف على أنواع القراءة

من المفيد أن يتعـرَّف الطالبُ علـى أنواع القـراءة، ويُنمِّي قُدُراته ليكتسـب المزيد من مهارات القـراءة، وفي ذلك بحوثٌ ودراسات كثيرة، ولكن ننبِّه هنا إلى أمور:

١ ـ لابـد أوَّلًا من النظر في نوع الكتـاب المقروء، فليس كلُّ كتابٍ أستطيع أن أُطبِّق عليه قواعد القراءة السريعة، فمثلًا كتب الفقـه أو الأصـول أو المصطلح لابدّ مـن قراءتها قراءةً متأنِّـيَـة، ليتمكّـن القارئ من اسـتيعابها وفهمهـا، فالقراءة هنا قراءة دَرْسٍ وفهـم. إلا إن أردت التقاط أشـياء معينة من هذه الكتـب كألفـاظ أو مصطلحـات أو كتـب أو مصـادر فيمكن المرور عليها سريعًا.

٢ ـ إذا تمكّـن الطالبُ مـن فنٍّ مـا، وألَمَّ بجمهور مسـائله واصطلاحاته، فلا حرج عليه حينئذٍ في قراءة ما يسـتجدّ له من كتـب الفن قـراءةً سـريعة، يلتقـط فيها ما يجـدّ له مـن مباحث وفوائـد وغيـر ذلـك، فتـختلف القـراءة من شـخصٍ إلـى آخر بحسـب التمكّـن مـن الفـن والمعرفـة بـه، فليسـت قـراءة المتـخصِّـص فـي الفقه لكتـاب «**المغنـي**» ـ مثلًا ـ كقـراءة غير المختصّ، وهكذا.

٣ ـ كتب التاريخ والأدب والسير والتراجم والموسوعات الضخمة، والمعاجم، وكتب المعارف العامة = هذا الصنف من الكتب هو مادة الجَرْد، وموضوع القراءة السريعة، فيستطيع الطالب المُجِدّ أن يأتيَ على أكثر هذه الكتب مُطالعةً[1]، مع تدوين ما يعنّ له من فوائد ونكات ومباحث في غير مظانِّها في أوراق خاصة (كما سيأتي بعد قليل).

أما مَن تَعانَى هذا النوع من القراءة، وأراد تطبيقه على بعض الكتب الدسمة والمراجع الأصيلة المهمة، مثل: «**التمهيد**»، و«**فتح الباري**»، و«**تاج العروس**»، و«**تفسير القرطبي**»، و«**أضواء البيان**»، وغيرها، فلن يخرج بالفائدة التي كان يرجوها، فلهذا النوع من الكتب نوع خاص من القراءة.

الإيقاظ الخامس: تقييد الفوائد

إذا انخرط الطالبُ في سِلْك القُرَّاء وانضم إلى ناديهم، فلا بُدَّ له من استثمار قراءاته وتوظيفها، ليجنيَ منها ما تمنَّى، ولا يضيع تعبه سدى، ولا طريقة أنفع ولا أنجع لتحقيق ذلك من الكتابة

(١) انظر الطريقة التي ذكرها أبو عبد الرحمن ابن عقيل في «الفنون الصغرى ـ السفر الخامس» (ص ١٨١ ـ ١٨٣) في قراءة مثل هذه الكتب.

والتقييد. فيقيد الفائدة المستجادة، والنقل العزيز، والتحرير المُدَلَّل، والترتيب المبتكر، وطرائف النقول والحِكَم، ودقائق الاستنباطات، ولطائف الإشارات، والأشباه والنظائر، وغيرها.

فكلّ نوع من هذه الفوائد له في عقل الطالب الجاد وقَلْبه مكانه الخاصّ به اللائق بمثله، فمعرفة اقتناص الفوائد شيء، وسرعة اقتناصها والاحتفاظ بها شيء ثانٍ، ثم معرفة توظيفها ووضعها في مكانها اللائق بها شيءٌ ثالث، فإذا اجتمعت هذه الثلاثة استكملَ الطالبُ فوائدَ القراءة وجنى ثمرتَها.

قال الإمام النووي(١) ـ وهو يرشد الطالب إلى تعليق النفائس والغرائب مما يراه في المطالعة أو يسمعه من شيخه ـ: «ولا يحتقرن فائدة يراها أو يسمعها في أيِّ فنٍّ كانت، بل يُبادِر إلى كتابتها، ثم يواظب على مطالعة ما كتبه...» اهـ.

وقال(٢) ـ أيضًا ـ: «ولا يؤخِّر تحصيل فائدة ـ وإن قَلَّت ـ إذا تمكَّن منها، وإنْ أَمِنَ حصولها بعد ساعة، لأن للتأخيرِ آفاتٍ، ولأنه في الزمن الثاني يُحَصِّل غيرَها» اهـ.

---

(١) «المجموع»: (١/ ٣٩).

(٢) المصدر نفسه: (١/ ٣٨).

فهذه نصيحة غالية ولَفْتَةٌ من إمام، فتمسَّك بها تُفْلِح.

فكم من عالمٍ أبدى أسَفَه وحَسْرَته على فوائد فاته تقييدُها فشردت، أو اتكل على حافظته فخانته (والحفظ خوَّان).

فهذا الإمام ابنُ حجر (حافظ عصره) فاتَه تقييدُ شيءٍ من الفوائد فتأسَّف عليه، قال تلميذه السخاوي في «**الجواهر والدرر**»[1]: «**أما التفسير، فكان فيه آيةً من آيات الله تعالى، بحيث كان يُظْهِر التأسُّفَ في إهمال تقييد ما يقع له من ذلك مما لا يكون منقولًا... وفي أواخر الأمر صار بعض طلبته يعتني بكتابة ذلك**».

ومثله ما ذكر العلامة اللغوي أبو الفتح ابن جني عن نفسه في كتابه «**الخصائص**» (١/ ٢٠٧).

وكذلك أيضًا ما ذكره الشيخ عبد الرحمن السعدي عن نفسه في آخر كتابه «**المواهب الربانية**» (ص ١٢٩ ـ ١٣٠).

وصدق القائل: «وكم حَسَراتٍ في بطونِ المقابرِ».

وأنت إذا نظرت في سِيَر العلماء، وكيف حرصهم على اغتنام الزمان وتقييد الفوائد رأيتَ عجبًا!

---

(١) (٢/ ٦١١).

فهذا الإمام البخاري (ت ٢٥٦) رَحِمَهُ اللَّهُ (جَبَلُ الحِفْظ) يستيقظ مراتٍ كثيرة في الليل ليُقَيِّـد الفوائد، قال راويته الفَرَبري: «كنت مع محمد بن إسماعيل بمنزله ذات ليلةٍ، فأحصيت عليه أنه قام وأسْرَجَ يستذكر أشياءَ يُعلِّقها في ليلةٍ ثمان عشرة مرَّة»[1].

وهـذا الإمـام الشـافعي (ت ٢٠٤) يحكـي عنـه صاحبُـه الحُمَيْديُّ ـ لمَّـا كانا بمصر ـ أنه كان يخرج في بعض الليالي فإذا مصباح منزل الشـافعي مُسْرج، فيصعد إليه «فإذا قِرْطاس ودَوَاة، فأقـول: مَـهْ يا أبا عبـد الله! فيقول: تفكّـرت في معنى حديـث ـ أو فـي مسـألة ـ فخِفْـت أن يذهـب عَلَـيَّ، فأمرتُ بالمصباح وكتبته»[2].

وقد مرَّ معنا خبر أبـي الوفاء ابن عقيل الحنبلي (ت ٥١٣)، فلا نعيدُه[3].

وذكر ابنُ الأبَّـار الحافظُ في «**معجم أصحـاب الصدفي**»[4] في ترجمة العلَّامة أبي القاسـم ابن ورد التميمي (ت ٥٤٠): أنه

---

(١) «السير»: (١٢/ ٤٠٤).

(٢) «آداب الشافعي ومناقبه» (ص ٤٤ ـ ٤٥) لابن أبي حاتم.

(٣) (ص ٥٠).

(٤) (ص ٢٥).

كان لا يُؤتى بكتابٍ إلا نظر أعلاه وأسفله، فإن وجد فيه فائدة نقلَها في أوراق عنده، حتى جمع من ذلك موضوعًا.

وذكر الحافظ ابن حجر في ترجمة الإمام الزركشي (ت ٧٩٤) صاحب «**البحر المحيط**» وغيره أنه كان يتردد إلى سوق الكتب، فإذا حضره أَخَذَ يُطَالع في حانوت الكتبي طول نهاره، ومعه ظهور أوراق يُعلِّق فيها ما يعجبه، ثم يرجع فينقله إلى تصانيفه[1].

وقد دوّن كثير من العلماء هذه الفوائد في كتب مفردة، مثل: «**الفنون**» لابن عقيل وهو من أضخم الكتب، و«**الفوائد العونية**» للوزير ابن هبيرة، و«**صيد الخاطر**» وغيره لابن الجوزي، و«**قيد الأوابد**» في (٤٠٠ مجلد) للزاغولي، و«**عيون الفوائد**» لابن النجار في (٦ أسفار)، و«**بدائع الفوائد**» و«**الفوائد**» لابن القيم، و«**التذكرة**» للكندي في (٥٠ مجلدًا)، و«**مجمع الفوائد ومنبع الفرائد**» للمقريزي كالتذكرة له في نحو (١٠٠ مجلد)[2] وتذكرة السيوطي في أنواع الفنون في (٥٠ مجلدًا)، و«**تذكرة الصفدي**» في مجلدات كثيرة أكثر من (٣٠)، منها أجزاء مخطوطة. وغيرها كثير.

---

(١) «الدرر الكامنة»: (٣/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨).

(٢) وقيل (٨٠).

ولا يتوهَّمَـنَّ أحـدٌ لأجـل ثنائنـا وإشـادتنا بتقييـد العلـم وتدوين الفوائد، أنَّـا نُقلِّل من أهمية الحفظ ونحطّ من شـأنه، كلَّا، إذ لا تعـارض بينهمـا بحمـد الله تعالى، وهل مَـنْ ذكرنا خبرَهم ـ قريبًـا ـ في حِرصهم على التقييـد والكتابة... إلا من أكابر الحفَّاظ!!

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

فهرس المصادر

أ

١. آداب الشافعي ومناقبه، لابن أبي حاتم الرازي، تحقيق عبد الغني عبد الخالق، دار الكتب العلمية.

٢. أدب الدنيا والدين، للماوردي، تحقيق شريف سكر ورفيقه، دار إحياء العلوم.

٣. الأدب المفرد، للبخاري، دار الكتب العلمية.

٤. إرشاد الأريب في معرفة الأديب، لياقوت الحموي، تحقيق مرجليوث، دار إحياء التراث العربي.

٥. أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، للمقّري، طبع المغرب.

٦. إشارة التعيين في طبقات النحاة واللغويين، لعبد الباقي اليماني، تحقيق عبد المجيد دياب، مؤسسة الملك فيصل الخيرية.

٧. أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن، للأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية.

٨. الأعلام، للزركلي، دار العلم للملايين.

٩. إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم، دار الجيل.

١٠. الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، للسخاوي، تحقيق فرانز روزنثال، مؤسسة الرسالة.

١١. أعيـان العصر وأعوان النصر، للصفـدي، تحقيق علي أبو زيد ورفاقه، دار الفكر ومركز جمعة الماجد.

١٢. إكمال المعلم بفوائد مسـلم، للقاضي عياض، تحقيق يحيى إسماعيل، دار الوفاء.

١٣. أنا، للعقاد، المكتبة العصرية.

١٤. إنباء الغمر بأبناء العمر، للحافظ ابن حجر، دائرة المعارف العثمانية.

١٥. إنباه الرواة على أنباء النحاة، للوزير القِفطي، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي ومؤسسة الكتب الثقافية.

١٦. الأنساب، للسمعاني، دار الجنان.

ب

١٧. البدر الطالع بمحاسـن من بعد القرن السابع، للشوكاني، مكتبة ابن تيمية.

١٨. بستان العارفين، للنووي، دار البشائر.

١٩. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للسـيوطي، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية.

٢٠. البيان والتبيُّن، للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مصورة دار الفكر.

ت

٢١. تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، مصورة عن طبعة بولاق.

٢٢. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للذهبي، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي.

٢٣. تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية.

٢٤. تاريخ جرجان، للسهمي، تحقيق عبد الرحمن المعلمي، دار الجيل.

٢٥. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، للجبرتي، دار الجيل.

٢٦. التبرك أنواعه وأحكامه، للجديع، مكتبة الرشد.

٢٧. تبيين كذب المفتري على أبي الحسن الأشعري، لابن عساكر، دار الكتاب العربي.

٢٨. التحبير في المعجم الكبير، للسمعاني، تحقيق منيرة ناجي سالم، العراق.

٢٩. تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف، للمزي، تحقيق عبد الصمد شرف الدين، المكتب الإسلامي والدار القيمة.

٣٠. تذكرة الحفاظ، للذهبي، تحقيق المعلمي، دار إحياء التراث العربي.

٣١. التراتيب الإدارية، لعبد الحي الكتاني، دار الكتاب العربي.

٣٢. ترتيب المـدارك لمعرفة أعلام مذهب مالـك، للقاضي عياض، وزارة الأوقاف بالمغرب.

٣٣. تغريب الألقاب العلمية، لبكر أبو زيد، دار الراية.

٣٤. تفسير الخازن، للخازن، دار الفكر.

٣٥. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، دار المعرفة.

٣٦. تقييد العلم، للخطيب البغدادي، تحقيق يوسـف العش، دار الوعي حلب.

٣٧. التقييد لرواة السنن والمسانيد، لابن نقطة، مصورة عن الهندية.

٣٨. التكملة لكتاب الصلة، لابن الأبَّار، دار المعرفة بالمغرب.

٣٩. التكملة لوَفَيات النقلة، للمنذري، تحقيق بشار عواد، مؤسسة الرسالة.

٤٠. تهذيب التهذيب، لابن حجر، دائرة المعارف العثمانية.

٤١. توثيق النصـوص وضبطهـا، لموفّق بن عبد القـادر، المكتبة المكية.

٤٢. ابن تيميَّة السَّلفي، لمحمد خليل الهراس، دار الكتب العلمية.

ج

٤٣. جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البـر، تحقيق الزُّهيري، دار ابن الجوزي.

٤٤. جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، تحقيق شعيب الأرناووط ورفيقه، مؤسسة الرسالة.

٤٥. الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية، لعلي العمران، ومحمد عزير شمس، دار عالم الفوائد.

٤٦. الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم، دائرة المعارف العثمانية.

٤٧. الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، للنهرواني، تحقيق الخولي وإحسان عباس، عالم الكتب.

٤٨. جواهر العقدين في فضل الشرفين، للسمهودي، طبع العراق.

٤٩. الجواهر المضيَّة في طبقات الحنفية، للقرشي، تحقيق الحلو، مؤسسة الرسالة.

٥٠. الجواهر والدرر في ترجمة الحافظ ابن حجر، للسخاوي، طبعة مصر، وطبعة دار ابن حزم تحقيق إبراهيم باجس.

ح

٥١. الحافظ ابن حجر أمير المؤمنين في الحديث، لعبد الستار الشيخ، دار القلم.

٥٢. الحث على طلب العلم والاجتهاد في جَمْعه، للعسكري، المكتب الإسلامي.

٥٣. حلية طالب العلم، لبكر أبو زيد، دار الراية.

٥٤. حياة الرافعي، لمحمد سعيد العريان.

٥٥. الحيوان، للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، البابي الحلبي.

خ

٥٦. خزائن الكتب العربية في الخافقين، لفيليب دي طرازي، طبع لبنان.

٥٧. الخصائص، لأبي الفتح ابن جني، تحقيق زهري النجار.

٥٨. خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، للمحبي، دار الكتاب الإسلامي.

د

٥٩. درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، للمقريزي، دار الغرب الإسلام.

٦٠. الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، لابن حجر، تحقيق كرنكو.

٦١. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي، دار الكتب العلمية.

٦٢. درة الحِجَال في غرة أسماء الرجال، للمكناسي، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور.

ذ

٦٣. الذكريات، لعلي الطنطاوي، دار المنارة بجدة.

٦٤. الذهبي ومنهجه في تاريخ الإسلام، لبشار عواد، مصر.

٦٥. ذيل تاريخ الإسلام، للذهبي، مخطوط نسخة ليدن.

٦٦. الذيل التام على دول الإسلام، للسخاوي، تحقيق إسماعيل مروة، دار العروبة الكويت.

٦٧. ذيل التقييد لرواة السنن والمسانيد، للفاسي، تحقيق محمد صالح المراد، جامعة أم القرى.

٦٨. ذيل الروضتين في أخبار الدولتين، لأبي شامة المقدسي، دار الجيل.

٦٩. الذيل على طبقات الحنابلة، لابن رجب، تحقيق الفقي، دار المعرفة.

ر

٧٠. رجال من التاريخ، لعلي الطنطاوي، دار المنارة جدة.

٧١. الرحلة في طلب الحديث، للخطيب البغدادي، تحقيق نور الدين عتر، دمشق.

٧٢. رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، لمحمود شاكر، دار الخانجي.

٧٣. رسالة مداواة النفوس، لابن حزم، ضمن رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية.

٧٤. رسالة مراتب العلوم، لابن حزم، ضمن رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية.

٧٥. روح المعاني، للآلوسي، دار الفكر.
٧٦. روضة المحبين، لابن القيم، تحقيق أحمد عبيد، دار الكتب العلمية.

ز

٧٧. الزهد، للإمام أحمد، دار الكتب العلمية.

س

٧٨. السلوك في طبقات العلماء والملوك، للجندي، تحقيق محمد الأكوع، مكتبة الإرشاد.
٧٩. سنن الدارمي، للدارمي، تحقيق الزمرلي، دار الكتاب العربي.
٨٠. السياق لتاريخ نيسابور، لعبد الغافر الفارسي (مخطوط).
٨١. سير أعلام النبلاء، للذهبي، مؤسسة الرسالة.

ش

٨٢. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد، دار الفكر.
٨٣. شرح صحيح مسلم، للنووي، المطبعة المصرية.
٨٤. الشعر والشعراء، لابن قتيبة، دار الكتب العلمية.
٨٥. شواهد الإعجاز القرآني، لعودة أبو عودة، دار عمار والبيارق.
٨٦. الشيخ طاهر الجزائري، لحازم محيي الدين، دار القلم.

ص

٨٧. صحيح البخاري، للبخاري، مع الفتح.

٨٨. صحيح مسلم، لمسلم، البابي الحلبي.

٨٩. الصلة، لابن بشكوال، تحقيق الحسيني، دار الخانجي.

٩٠. صيد الخاطر، لابن الجوزي، طبعة دار الكتاب العربي، وطبعة دار اليقين تحقيق عبد الرحمن البر.

ض

٩١. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، للسخاوي، طبعة القدسي.

ط

٩٢. الطالع السعيد، للأدفوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٩٣. طبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى، تحقيق حامد الفقي، دار المعرفة.

٩٤. الطبقات السنية في طبقات الحنفية، للتميمي، تحقيق الحلو، دار الرفاعي.

٩٥. طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي، تحقيق الطناحي والحلو، البابي الحلبي.

٩٦. طبقات علماء أفريقية وتونس، لأبي العرب التميمي، تحقيق علي الشابي، ونعيم الجافي، الدار التونسية.

٩٧. طبقات فقهاء اليمن، للجعدي، تحقيق فؤاد السيد، دار القلم.

٩٨. طبقات المفسرين، للداوودي، تحقيق علي محمد عمر.

ع

٩٩. العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، لابن عبد الهادي، تصوير مكتبة المعارف الطائف.

١٠٠. العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، لابن الجوزي، دار الكتب العلمية.

١٠١. العلم، لأبي خيثمة، تحقيق الألباني، دار الأرقم.

١٠٢. عمدة القاري بشرح صحيح البخاري، للعيني، المنيرية.

١٠٣. عنوان الدراية، للغبريني، تحقيق عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة.

١٠٤. عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران، للبِقاعي، مخطوط نسخة كوبريلي.

غ

١٠٥. الغنية، للقاضي عياض، تحقيق محمد بن عبد الكريم، الدار العربية للكتاب.

ف

١٠٦. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار الريان للتراث.

١٠٧. فضل علم السلف على علم الخلف، لابن رجب، تحقيق العجمي، دار البشائر.

١٠٨. الفضل المبين في شرح الأربعين، للقاسمي، تحقيق البيطار، دار النفائس.

١٠٩. الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، للحجوي، دار الكتب العلمية.

١١٠. الفلاكة والمفلوكون، للدَّلجي، دار الكتب العلمية.

١١١. الفنون الصغرى، لأبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري، النادي الأدبي بالطائف.

١١٢. الفوائد، لابن القيم، مكتبة دار البيان.

١١٣. فوائد تمام، لتمام الرازي، تحقيق حمدي السلفي، مكتبة الرشد.

١١٤. الفهرس الشامل للتراث العربي المخطوط، صدر عن جامعة آل البيت بالأردن.

١١٥. فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، للكتاني، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب.

ق

١١٦. القبس الحاوي لدرر ضوء السخاوي، للشماعي، تحقيق إسماعيل مروة، دار صادر.

١١٧. قَبْض الريح، لإبراهيم عبد القادر المازني.

١١٨. قطف الثمر في رفع أسانيد المصنفات في الفنون والأثر، للفُلَّاني، تحقيق عامر صبري، دار الشروق جدة.

١١٩. قواعد التحديث، للقاسمي، دار الكتب العلمية.

ك

١٢٠. الكتاب في الحضارة الإسلامية، ليحيى الجبوري، دار الغرب.

١٢١. الكشاف، للزمخشري، دار المعرفة.

١٢٢. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة، دار الكتب العلمية.

١٢٣. الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة، للغزي، دار الكتب العلمية.

ل

١٢٤. لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ، لابن فهد، دار إحياء التراث العربي.

١٢٥. لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات، لعبد الستار الحلوجي، دار الثقافة.

م

١٢٦. مجلة المجمع العلمي الهندي، الهند.

١٢٧. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمي، مؤسسة المعارف.

١٢٨. المجمع المؤسِّس للمعجم المفهرس، لابن حجر، تحقيق يوسف المرعشلي، دار المعرفة.

١٢٩. المجموع، للنووي، دار الفكر.

١٣٠. محاسن التأويل، للقاسمي، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر.

١٣١. مختصر طبقات علماء الحديث لابن عبد الهادي، تحقيق إبراهيم الزيبق ورفيقه، مؤسسة الرسالة.

١٣٢. المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، لابن بدران، تحقيق التركي، مؤسسة الرسالة.

١٣٣. المدخل المفصل إلى فقه الإمام أحمد بن حنبل، لبكر أبو زيد، دار العاصمة.

١٣٤. المرقبة العُلْيا فيمن يستحق القضاء والفتيا لأبي الحسن المالقي، المكتب التجاري للطباعة.

١٣٥. مسائل في طلب العلم وأقسامه، للذهبي، ضمن ست رسائل للذهبي، تحقيق جاسم الدوسري، الدار السلفية.

١٣٦. المستدرك على الصحيحين، للحاكم، دائرة المعارف العثمانية.

١٣٧. المسند، للإمام أحمد، المكتب الإسلامي.

١٣٨. مسند الشاميين، للطبراني، تحقيق حمدي السلفي، مؤسسة الرسالة.

١٣٩. مشيخة أبي المواهب الحنبلي، لأبي المواهب، تحقيق محمد مطيع الحافظ، دار الفكر.

١٤٠. المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، لابن حجر، دار الوطن.

١٤١. معجم أصحاب أبي علي الصدفي، لابن الأبار، دار صادر.

١٤٢. المعجم الأوسط، للطبراني، تحقيق الطحان، مكتبة المعارف الرياض.

١٤٣. معجم البلدان، لياقوت الحموي، دار إحياء التراث.

١٤٤. معجم الشيوخ، للذهبي، تحقيق محمد الهيلة، مكتبة الصديق.

١٤٥. المعجم الكبير، للطبراني، تحقيق حمدي السلفي، العراق.

١٤٦. معرفة القراء الكبار، للذهبي، تحقيق أحمد خان، مؤسسة الملك فيصل الخيرية.

١٤٧. مفتاح دار السعادة، لابن القيم، تحقيق علي عبد الحميد، دار ابن عفان.

١٤٨. المفهم على صحيح مسلم، لأبي العباس القرطبي، دار ابن كثير، والكلم الطيب.

١٤٩. المقاصـد الحسـنة فـي الأحاديـث المشـتهرة علـى الألسـنة للسخاوي، دار الهجرة بيروت.

١٥٠. المقفى الكبير، للمقريزي، تحقيق اليعلاوي، دار الغرب.

١٥١. ملء العيبة بما جُمع بطول الغَيْبة، لابن رُشيْد الفهري، تحقيق محمد بن الخوجة، دار الغرب.

١٥٢. ملحق البدر الطالع، لمحمد زبارة، مكتبة ابن تيمية.

١٥٣. المنتظم في أخبار الملـوك والأمم، لابن الجوزي، دار الكتب العلمية.

١٥٤. منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيع والقدرية، لابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، جامعة الإمام.

١٥٥. الموافقات، للشـاطبي، تحقيق مشـهور حسن سـلمان، دار ابن عفان.

١٥٦. المواهب الربانية من الآيات القرآنية، لعبد الرحمن السـعدي، تحقيق عمر المقبل، دار الحضارة، ١٤٣٢هـ.

ن

١٥٧. نظم العقيان في أعيان الأعيان، للسيوطي، المكتبة العلمية.

١٥٨. نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري، تحقيق فهيم شلتوت، دار الكتب المصرية.

هـ

١٥٩. هجر العلم ومعاقله في اليمن، للقاضي إسماعيل الأكوع، دار الفكر.

و

١٦٠. الوافي بالوفيات، للصفدي، نشر جمعية المستشرقين.

١٦١. الوفيات، لابن رافع السلامي، تحقيق صالح مهدي عباس ورفيقه، مؤسسة الرسالة.

١٦٢. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار الفكر.

فهرس الكتاب

الفصل الثالث:

الفصل الرابع:

الفصل الخامس:

الفصل السادس:

الفصل السابع:

الفصل الثامن: